
مجموعة قصصية
في
انتظار البريد
نعيم عودة
دار علاء

بسم الله الرحمن الرحيم

في
انتظار البريد

مجموعة قصصية

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية (2009/10/4422)

813.9
عودة، نعيم مجاهد

في انتظار البريد مجموعة قصصية/ نعيم مجاهد عودة - عمان :
دار غيداء للنشر والتوزيع، 2009

( ) ص
ر.إ: (2009/10/4422).
الواصفات:/ القصص العربية// العصر الحديث/

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ISBN 978-9957-480-41-7



دار غيداء للنشر والتوزيع

تلاع العلي - شارع الملكة رانيا العبدالله
مجمع العساف التجاري - الطابق الأول
تلفاكس : 5353402 6 962+
خلــوي : 95667143 7 962+
ص.ب : 520946 عمان 11152 الأردن
E-mail: darghidaa@gmail.com

في
انتظار البريد

مجموعة قصصية

كتبها : نعيم عودة

الطبعة الأولى
2010م – 1430هـ

الفهرس

مقدمة:

على امتداد سنوات، كانت رؤى الأحداث تخايلني، تتراقص أمام مخيلتي، تسكب في روحي أفكاراً ومعانيَ لا تكاد تفارق، وكنتُ أجمعها في الذاكرة، وأحتفظ بها، حتى كان لا بدّ لها وأن تخرج من مكامنها، سطوراً على ورق.

في انتظار البريد، قصص قصيرة، رحلتها كانت طويلة، وهي تحكي قصصاً لأشخاص حقيقيين، مروا بها، فهذا الذي سافر ولم يعد، وذاك الذي اغترب قسرا وعاد بعد أن شاخ، وذانك اللذان تحابا من غير أمل، والجاسوس الذي عاش بيننا سنين طوالا ولم نكتشف أمره إلا بعد أن انتهت مهمته، وهذا وذاك وهذه وتلك....

إلا أنها في نهاية الأمر، تعبر عن إنسانيتنا التي فقدت أصولها ومرساها، واغتربت غصباً عنها، ومرت العقود وجاء نسلٌ جديد، لقد ظنوا أن هذا النسل الجديد سينسى الوطن المفقود، ثم اكتشفوا أن ظنهم قد خاب وما كانوا على شيء مما اعتقدوا.

في انتظار البريد، كُتبت ليقرأها كل عربي، عاش ضياع الأوطان وضياع الأمان وفقدان الأمل في مرحلة الانكسار، ليبحث عن بوصلة جديدة ورُبان يعرف طريقه في اليمّ ويصرّ على الوصول إلى برّ الأمان.

تقبلوا امنياتي لكم بسلامة الوصول.

في انتظار البريد

كتبها : نعيم عودة

كانت أمسية شابها شيء من الحزن، أضيئت أنوار المنزل داخله وخارجه، وصفت الكراسي وأعدّت أباريق الشاي ودلال القهوة .. بدأ الأقارب والجيران يتوافدون على المنزل. وبعد صلاة العشاء اكتمل الجمع، ودارت الأحاديث حول السفر والهجرة والغربة، فهذا خالد – صاحب المنزل – يسافر صباح غد إلى بلد بعيد .. هجرة قد تطول تتبعها هجرة زوجته وابنيه الصغيرين فيما بعد.

الآمال العريضة تفتح أبوابها، شآبيب الرزق تندفع زخات قوية تطرد الفقر اللئيم المحيط بالمكان، فليذهب الفقر إلى الجحيم .. مرحبا بالحياة الجديدة، أهلا بالسعادة الغامرة تطلّ وتتماوج كزهرات بستان يانع، يا هلا .. يا هلا .. غداً تشرق الشمس ويفترّ ثغرها الباسم عن صباح جميل. هكذا وإلا فــــلا.

تنحنح المختار وعدّل جلسته، ألقى نظرة استعرض فيها وجوه الحاضرين، كانت هذه هي عادته كلما أرادهم أن ينصتوا ليستمعوا إليه.

الله يمسيكم بالخير جميعا .. هذا أخوكم ؛
بلد لا يعلمه ولا نعلمه، وسوف تطول غيبته و‌إ
هكذا قال له من سبقوه .. نرجو أن لا ينسانا م
سنرعى زوجته وطفليه إلى أن يلحقوا به. سافر
لقد سافر فتحي قبله .. ها قد مضى عل
ثلاثين سنة، لم نسمع عنه شيئا غير أنه حيٌ يرزق
خطابا ولم يرسل قرشا أحمر، تصوروا إنه لم يتـز
يتركون ضياعهم وأهليهم، ينخلعون من جذور
أما سمعتم عن موسى شقيق حسين
أخباره، ثم علمنا أنه تزوج من أجنبية .. فماذا
المال الكثير؟ قُتـل في ظروف غامضة وما زالت
مجهول!

تنحنح المختار مرة أخرى وألقى نظرته ا
فأنصتوا.

والله يا جماعة، لا خير في الغربة إن طال
لابن ولا لحفيد أن يترك ضيعته إلى الأبد، نحن
تعيش في أرض الضباب! قاتل الله الفقر، لعن ا
كنز لا يفنـــــى.

ضحك أحد الشباب في ركن قصيّ وقال: القناعة كنز لا يفنّي يا مختار. صفق الشباب من حوله وأعادوا مقولته بقناعة تامة.

ودارت كاسات الشاي على الحضور ودار الحديث في شتى امور الدنيا، وكان البدر طالعا في كبد السماء فأضاء نوره الأجواء، وهبت نسمات طرية أنعشت الحضور .. وطرب الشيخ ياسين فارتفع صوته بالنشيد:

يا صاحب الترحال لا تندم على ما كان منكا

فاليوم مثل الأمس كان وما يزال العيش ضنكا

ولعلّ يومك قاصرٌ وغدٌ سيجلو الضيم عنكا

وجاء دور القهوة .. فدارت الفناجين ؛ أولا المختار ثم عن يمينه حتى نهاية المطاف .. تناول المختار الفنجان .. ارتعشت يده .. وسقط الفنجان من يده.

خير .. خير يا مختار .. انكبّ الشر. هات قهوة غيرها للمختار.

لا .. مليش نفس.

استأذن المختار وودّع خالدا ثم نهض الرجال وودعوا المسافر ودعوا له بالتوفيق.

وقفت زوجة خالد على الدرج العلوي .. شعاع القمر يغمر الساحة، الكراسي مبعثرة في الأنحاء، كاسات الشاي وفناجين القهوة موضوعة بغير عناية على الدكة المحيطة بالحديقة.

هنا كان يجلس المختار، وبقعة القهوة ما تزال آثارها على بلاط الساحة.

حسنا .. الصباح رباح.

التاسعة صباحا .. قلب يعتصره الألم ودمعة غادية رائحة، وتشنجات قصيرة تذهب ثم تعود .. ونظرة أخيرة بين زوجين أحبا بعضهما رغم الفقر ورغم الفاقة ورغم الحاجة .. وتعلق الصغيران بعنق المسافر .. لم يقل شيئا .. كان ينظر إليهما بينما تتجمد دمعة رقراقة في محجريه وتنتظر الكلمات المتيبسة على أبواب الشفاه المرتعشة.

اكتب انـــــا.

تحركت السيارة وامتدت النظرات بين حبيبين امتداد الطريق السويّ ثم انعطفت إلى اليمين وانقطع النظر. لملمت طفليها ودخلت غرفتها .. ضمتهما بعنف وعلا صوتها بالنحيب.

انطلق الزمان عبر المسافات وامتدت الطريق امتدادا لا ينتهي، عبرت عمان إلى الشام فتركيا .. خيّم ليل وطلع صباح .. لحن

اليوم في بلاد أخرى .. نحن في محطة للقطارات .. سيمتدّ الطريق عبر الشمال موغلا في قلب أوروبا.

في محطة القطارات خلق كثير، لغات ولهجات واشكال .. حقائب تعلو الظهور .. خيل إليه انه يرى قوافل من الجمال تسير على رجلين .. الناس هنا يسيرون بسرعة .. إنهم لا يحيي بعضهم بعضا، مقبلون على الدنيا وكأن القيامة ستقوم قريبا.

نفث القطار دخانه وأطلق صافرته .. طويلة تنذر بوداع طويل .. الأشجار على جانبي القطار تنطلق بسرعة العاصفة، بينما تمتدّ المروج الخضراء بساطا سندسيا على مدّ النظر.

من محطة إلى محطة .. ومن قطار إلى قطار .. ومن عربة إلى عربة .. الرجال والنساء يتراكضون .. يلهثون بينما يحمل البعض سندويشا والآخر زجاجة شراب وثالث يبصق على أرض المحطة، وفي أركانها يتوزع رجال أنهكهم العمر يمدون قبعاتهم للمارة .. ورجال يعزفون الموسيقى يتحلق حولهم مستمعون صاخبون يلقون إليهم ببعض القطع النقدية وينصرفون.

أنهكه التعب وطول السفر .. ألقى جسده المنهك على سرير خشبي عتيق .. نظر إليه صاحبه .. لقد نام .. إنه يشخر كمن به

مسنّ. حتى في منامه المتعب .. رأى زوجته وطفليه، رأى المختار وسمعه يتنحنح .. شوارع الضيعة الضيقة .. طرقها الرملية الملتوية المؤدية إلى الحقول .. أشجار الزيتون الروماني .. كان يدخل في قلب جذع الشجرة ويختفي عن أعين أصحابه عندما كانوا صغارا...

هنا كبر واشتدّ عوده وأصبح شابا .. هنا التقى الصبية الحسناء حيث حادثها لأول مرة ثم قرر أن يتزوجها .. هنا وهنا وهنا و.. هناك. ارتعد قليلا ثم همد ونام.

مضى شهر .. ليس من السهل أن تجد عملا أنت تريده .. غسل الصحون في المطاعم، تقديم القهوة والشاي والمشروبات المحرمة للزبائن، بيع الجرائد عند إشارات المرور، مساعدة السيدات المسنات في الأسواق، النزول في أنابيب المجاري – خرج منها يترنح حتى ظنوا به سكرا.

وانقضى شهر ثان .. متى سيكتب خطابا؟ أين الوقت ؟ أين البريد؟ أين الروح؟ ماذا سيكتب؟؟

في كل مرة تفتح فيها الزوجة صندوق البريد، تجده خاويا .. ذات يوم ألقت نظرة من فتحة الصندوق .. فيه خطاب !! دقّ

قلبها بعنف، وغصبا عنها سقطت دمعة، المفتاح!! وتناولت الرسالة: وزارة البرق والبريد والهاتف .. تجديد عقد صندوق البريد.

آه .. ما أقسى الأقدار!! كم أشتاق إليه وكم يشتاق إليه الصغيران!!

الغربة .. يا ضيعة المهاجر أنت، يا مذبحة الأحلام أنت !!

عادت إلى منزلها .. خطت خطوات داخل البوابة..

* هنا كان يجلس المختار .. هنا آثار فنجان القهوة، وهنا ضاع البريد.

خلف عتبات المخيم

كانت طفولة معذبة تلك الطفولة التي عاشها خميس، وفي ركن قصي من المخيم يقبع بيت من غرفتين وحمام وساحة ترابية، قد بني من الطين والقش، في إحدى الغرفتين يرقد الأب وزوجته وفي الأخرى تتحلق مجموعة كبيرة من الأطفال .. بنون وبنات أكبرهم خميس، يتناقشون دائما في فوضى عارمة ثم يتمطون عند الظهيرة وقد اشتدّ الحر وغدا لا يطاق، حتى أن الذباب لا يطيقه فينتشر في فضاء الغرفة يئزّ أزيزا يمنع النوم من أن يسكن الجفون حتى وإن كانت مرهقة.

عندما يحل المساء وتغرب شمس أريحا خلف الجبل، كنا نظنها تسقط في القدس، يستأذن خميس أمه المكدودة كي يشعل السراج فتصيح فيه: بدري، مفيش كاز. وينتظرون حتى تحل الظلمة الحالكة فيشعلون السراج ويتحلقون حول أقراص الفلافل وأرغفة من الخبز السميك ينهشونها في سرعة هبوب الريح العاتية. ما هي إلا لحظات حتى ينهض خميس حاملا حصيرا يطرحها في ساحة الدار الرملية ويتمطى على ظهره شاخصا نحو السماء يعدّ نجومها. سماء الصيف صافية ونجومها لا تعدّ ولا تحصى. وخميس لا يعدّ النجوم على

أصابعه خشية أن تطلع له ثواليل في كل مكان يعدّ فيه نجمة من نجوم السماء. وتهب نسمة طرية قادمة من الغرب، ما أطيب رائحة القدس.

شمس الصيف تصحو قبل خميس .. تشرق وتسطع على وجهه فيغطيه بالبطانية لكن أشعة الشمس تخترق البطانية العتيقة ثم تحيلها إلى فرن حار، ينتفض خميس ويقفز مقطبا ويلعن المخيم وأهل المخيم ومدير المخيم، لا يغسل وجهه وإنما يتجه إلى حقيبة صنعت من القماش الأزرق، فيها قلم رصاص وبعض الكتب والدفاتر التي وزعتها وكالة الغوث على طلاب المدارس. يضع حزام الحقيبة على كتفه ويتجه نحو المدرسة البعيدة، طبعا سيرا على الأقدام، والحذاء – أيّ حذاء– صندل عتيق .. شبشب .. حافيا مرات عديدة.

الأستاذ عفيف .. كان نحيلا طويلا .. وعصاه أطول منه .. يلّوح بها لمن يتأخر، وخميس يتأخر كل يوم .. إيدك .. طاخ .. طاخ. أدخل.

يسب خميس الأستاذ عفيف ويلعن مادة الفيزياء التي يدرّسها، ويقف في آخر الطابور مائلا بكتفه الأيمن في لا مبالاة وقرف.

داخل الصف، كان خميس شخصا مختلفا، يتحرك من مقعد إلى مقعد، يقرص هذا ويضرب ذاك ويضحك بصوت عال، لا يهمه فهم أم لم يفهم، وهو لم يفهم قط. في أحد امتحانات آخر السنة ،جاء سؤال الأحياء كالتالي: كيف نكافح الذباب والبعوض؟ وجاء جواب خميس مكتوبا: نكافح الذباب والبعوض بالرشاشات والبنادق. وفي موضوع التعبير كتب: رأى الراعي مغارة فش.. فيها. ولما غضب الأستاذ عزمي وهدده وعنّفه، سأله خميس: لماذا تعنفني؟ فأراه الأستاذ ما كتب، فضحك وقال: إنما أردت أن أكتب – رأى الراعي مغارة فخشّ فيها. ضحك الأستاذ عزمي طويلا وضحك الصف كله. كان خميس مغامرا يتخلص من العقاب بطرق لولبية.

لم يكمل صاحبي دراسته .. بعد الصف الثالث الإعدادي خرج من المدرسة كافرا بالكتب والأقلام والحقائب وقلة المصروف، (تعريفة) كل أسبوع لا تقي بردا ولا تدفع حرا .. خرج من المدرسة غير آسف واختفى من حياتنا تماما. أراد أن يشقّ لنفسه طريقا غير طريق العلم التي تؤدي عادة إلى مستنقع الوظيفة وذلّ الخضوع للمسؤولين وانتهاء بالفقر.

سارت الأيام كما تسير الجداول، نصحو مبكرين نتجه إلى المدرسة وكثيرا ما نتوقف خلف الجدران وتحت الشبابيك لنسمع

أغنية جميلة ولا تتحرك حتى تنتهي، بينما الأستاذ عفيف النحيل الطويل ينتظر بعصاه الطويلة ويلوح بها من بعيد.

كثرت الأيام وغدت سنينا، تخرّجت دفعتنا في الثانوية وتفرّق الرفاق، كلّ في مركب، زرعتنا الرياح الهوج في مواقع شتى من أطراف الكوكب العظيم، وبعد سنوات الجامعة أصبحنا نلتقي في المطارات وعلى الحدود. نزلت من الطائرة في مطار المكلا، مطار ترابي ذكرني بساحة بيت خميس في المخيم. كنت أعتقد أنني الوحيد الذي يصل إلى المكلا في منتصف الستينيات .. ولشد ما عجبت أنني رأيت ستة من أصدقائي في انتظاري، وعندما وقفت على سلم الطائرة كانوا يشيرون: ها قد وصل، ها قد وصل.

ودارت الأيام كعادتها، وغادرت المكلا، اغتربت إلى بلد خليجي آخر. نحن ننتقل من محطة إلى أخرى، نحن نسكن قطارا لا يتوقف أبدا، هنا طالت غربتي، قابلت الكثيرين من الصحاب القدامى، كلهم يعملون هنا: عدنان شلبي وساطي شبيطة (يرحمهما الله) ويوسف بدر وخليل سيف والأبجر محمود سرحان وغيرهم كثير. وعلمت من بعضهم أنّ خميسا يشتغل كهربائيا في المستشفى العام. إذن .. خميس خرج من المدرسة وصار كهربائيا، وهو الآن

يعمل ويقبض راتبا شهريا محترما وله زوجة وأبناء .. وأين أيام التعريفة .. لقد ولّـــت.

سعدت كثيرا عندما علمت بذلك، استذكرت أيامه وهو يقطع شوارع المخيم جيئة وذهابا يلعن ويشتم ويضحك بأعلى صوته، والبنطلون المرقع من الخلف ومن الأمام عند الركبتين، أيام زمان. ولم أقابله بعد.

ذات صباح فتحت الجريدة، وكان العنوان (حريق هائل في مستشفى بسبب ماس كهربائي) شدني العنوان، خميس هو الكهربائي المسؤول، هل يتحمل صاحبي أية مسؤولية عن الحادث الرهيب!! وقرأت التفاصيل:

اندلع حريق هائل في المستشفى مساء أمس في غرفة القواطع الرئيسية وامتدت ألسنة النار إلى الأجنحة المجاورة وإلى غرف المرضى.. هرب الناس ومن استطاع من المرضى. لم يستطع أحد أن يفعل شيئا، والناس يتساءلون: من يستطيع أن يدخل غرفة القواطع وهي على حالها قطعة من نار جهنم!!

ومن بين جموع المشدوهين انطلق جسم دقيق كأنه النيزك، اخترق النيران وانقضّ على القاطع الرئيسي وأغلقه، لكنه لم يستطع أن يغادر المكان!!

بعد ساعات توقف كلّ شيء وهدأ المكان. دخل رجال الإطفاء غرفة القواطع، كان هناك جسم ممدد بين الأرض والقاطع الكبير وقد ذاب كأنه قطعة من البلاستيك.

هـذا هـو خميـس، رحمه الله.

الهجرة إلى الجنوب

... ضاق به الحال، كلما ظنّ أنه قريب من العودة إلى يافا، وشفه الوجد إليها، سرق الزمان منه الأحلام، فكان يظلّ حبيس الشوق والحلم، حتى أضناه الفكر وعصفت به الأيام، فقرر أن يفعل شيئاً ينقله من شقوته وينسيه أفكار العودة إلى حين ..

هو هنا، يعيش على أرض تبعد عن يافا مسيرة ليلة، لو سارها على قدميه المشتاقتين إليها لوصل،لكن الحواجز كثيرة، والطغاة أكثر، وطيور السماء لا تعبرها إلا وفي منقارها تصريح سفر...

فما العمل؟

سنة وسنتان وثلاث وأربع، واستبدّ به القلق، وراح يفكر كطاحونة أصاب تروسها عطب، لا بدّ من الهجرة ولو كانت نحو الجنوب .. أيّ جنوب؟ أبعد جنوب في مدارنا .. المكـــلا..

كان قد سمع فهد بلان يغني أغنيته الهادرة في ذلك الزمان (يا بنات المكلا)، فظن ذلك الجنوب جنة عدن، خصوصاً وأنها من بلاد عدن .. إنه ذاك الجنوب إذن..

لم يمهله الزمان كثيراً، فاختلق مشكلة مع مديره، وتصارحا، كان ذاك المدير جباراً بمعنى الكلمة، لكنّ صاحبنا كان قد دبر أمره، ورفع سبابته في وجه مديره قائلا في حدة: هذه هي استقالتي.

وفوجئ المدير بهذه النبرة الحادة وبهذا القرار القاطع .. فصاح بنفس اللهجة: استقالتك مقبولة.

كان ما أثقل ذكراه .. كان مجرد الشعور بأنه مديرك ، يدخلك في دوامة من الضعف والاستكانة، أنت عبدٌ له، أنت لا تستطيع أن تتحرك بين أنيابه التي دائماً ما تصطكُّ لسبب أو لغير سبب .. كان مفترساً إلى حدّ بعيد. انزاحت تلك الصفواء عن كاهلي .. لقد تحررت من ربق عبوديته..

أيام ليست بالكثيرة، وجدتني أحمل عقد عمل وتذكرة سفر، (سأركب الطائرة لأول مرة في حياتي)، فرحت كما يفرح صبيٌّ أصاب لعبة لم يصبها أصحابه في سنّه، دخلتُ البيت فرحاً مبتهجاً، واتجهت نحو ابنة الحلال، (كنا صغاراً) هي في العشرين وأنا في الثالثة والعشرين، وقد أنجبنا ثلاثة من خلق الله، بنتين وولداً، كان الولد في شهره الثالث آنئذ .. وراحت السكرة وجاءت الفكرة .. كيف أترك هؤلاء؟ إنهم عائلة، من يستطيع أن يعتني بهم ويتحمل ثقلهم من

بعدي؟ أهلي؟ لن يرضوا بذلك، أهلها؟ هم أولى الناس بها .. ويخلفها .. وهكذا كان.

أوصيتها أن تحافظ على نفسها وعلى الأطفال، ووعدتها أن آخذهم إلى المكلا في أقرب فرصة .. جمعت ملابسي في حقيبة متوسطة الحجم، ورافقتني ووالداها إلى مطار القدس، (لم تكن القدس قد انهزمت بعد)، لا أدري كيف استطعت أن أصل إلى باب الطائرة، ولا كيف استطعت أن أجلس على مقعد معين، سارت الأمور بطريقة أوتوماتيكية، وهبطت الطائرة في بيروت، وهناك تولتنا شركة الطيران، ونقلونا إلى فندق، على موعد بنقلنا غداً إلى طائرة أخرى تقلنا إلى جدة ومنها إلى عدن ثم إلى مدينة المكلا ..

لم أنم كثيراً، حتى غلبني النوم، كانت أول ليلة أنام فيها في فندق، لم أعرف هل أطلب طعاماً أم شراباً أم التزم الجوع والعطش .. ولكنهم كانوا أكرم من ذلك .. ففي الصباح جاءوا بالفطور، وأخبروني أن عليّ أن استعدّ بعد ساعة للنزول إلى القاعة في الدور الأرضي، لتنقلنا حافلة إلى مطار بيروت .. فرحت لهذا الترتيب غير المتوقع – مني على الأقل - ، وبعد ساعتين كنت في قلب الطائرة، طائرة كبيرة ملأى بالبشر، على أن المقعد الذي كان على يساري كان فارغاً، تمنيت أن تأتي فتاة جميلة لتجلس فيه، حتى أستطيع أن آنس

بها أو إليها .. وطال انتظار الجميع، وتململ المضيف وبدأ يكلم نفسه.. إن راكباً قد تأخر ونحن في انتظاره ..

وبسرعة دخل باب الطيارة فتاة، كانت حقيقة فتاة جميلة، دون العشرين، عربية الملامح وفيها جمال عربي وملاحة لا تخطئها العين .. دقّ قلبي وتحققت أمنيتي .. أفسحت لها لتدخل إلى جانب الشباك وأصبحتُ على يمينها .. القيت عليها نظرة خجولة وابتسامة كلمح البصر، ولكنني تشجعت وهمست: أخـرتيـنا.

كانت تلهث .. جاءت إلى الطيارة ركضاً، على ذراعها عباءة سوداء تفوح برائحة عطر نسائي حميم، كان أول عطر أشمه من هذا النوع على امرأة .. نظرت إليّ بجرأة وقالت: لا أريد أن أضيع دقيقة من وقتي، أحب بيروت حتى النخاع.

كانت كمن خرجت من لحظات لذيذة، فقد كان في يديها رعشة خفيفة تنبئ عن قلب ما يزال يخفق بعنف، وكانت عيناها اللوزيتان تدوران في فضاء الطائرة دون استقرار، كأنما تبحث عمن فقدته منذ لحظات، لعله في غير ما سابقة، تبعها، أمسكت عباءتها المكورة في يدها، ضمتها بعصبية وقالت: أف أف، عدنا إليك.

تحوّلت نحوي وابتسمت ابتسامة رقيقة وقالت: إلى أين أنت مسافر يا .. ؟ قلت: أذاهبةٌ أنت ِ إلى جدة ؟ قالت: نعم. انتهت الإجازة.

- ما اسمك ِ ..
- أنا سلوى، وأنتَ؟
- المسافر. أين تسكنين في جدة؟
- أبي يعمل في سوق الندى لديه محل كبير..
- أتمنى لو أني مقيم في جدة.
- أكنتَ تأتي لتخطبني من أبي؟
- لستُ مسافراً إلى جدة، ولن أنزل حتى في مطارها.
- أين سيحطّ بك الرحال؟
- في عدن ، ومنها إلى المكلا

وارتجلتُ:

وركبتُ طائرةً تضجّ كما رعودٍ في محنْ

وعلى يساري غادة حسنـ ـاء كالرئم الأغنْ

يا ليتك السلوى إلى قلبي إذا جارت عدنْ

وتوقف الزمان في المطار، لملمت عباءتها وفردتها على جسدها، ونثرت منديلها على شعرها الكستنائي، كانت غاضبة، تريد العودة إلى بيروت ..

توقفت الطائرة في مطار عدن، مطار واسعٌ يقع معظمه في الماء، كان المنظر رائعاً وكنا في منتصف الليل، أنوار صفراء تنتشر في كل مكان، رائحة العرق والرطوبة التي لم أعهدها من قبل، تفوح مع نسيم الليل الهادئ، جنود عدنيون يتحركون حول الطائرة ووراءهم جنود بريطانيون يرقبون كل شيء، ونقلونا إلى فندق الجزيرة في قلب عدن، منطقة كريتر.

ونزلتُ في قصر الجزيرة أربعاً أبغي استراحةْ
قلّدت قلبي رغم أنف البعد والدنيا، وشاحه
وهتفتُ يا دنيا السعادة أقبلي، هذي براحة
ما كلّ شيءٍ كائنٌ لكنّ لي فيه مساحة

أربعة أيام قضيتها في مدينة عدن، كنت أتمشى في شوارعها وحواريها، ذكرتني بمدينة نابلس القديمة، وباب العمود في القدس، وصور من الذاكرة لمدينة يافا، وأسوار عكا، وهل يغيب الوطن الجميل عن ذاكرة الغريب!

فجأة وجتني في منطقة حديثة البناء، هي المُعلا، كان الجنود البريطانيون ينتشرون في الشوارع، يستوقفون كل مارّ، واستوقفوني، وجهك إلى الجدار! استدرتُ وقلتُ: أنا من الأردن أعمل مدرساً في المكلا. أطلقني دون تردد، فعدت أدراجي إلى الفندق. الاستعمار البريطاني هو مأساتنا منذ بداية الأزمة. البريطانيون دودة الأرض القذرة على وجه البسيطة.

الطائرة التي أقلتنا إلى المكلا كانت من نوع فوكر، كنا أربعة عشر راكباً، وتراقصت هذه الطائرة الصغيرة في الهواء ما شاء الله لها أن تتراقص، ولما هبطت على الأرض ووقفتُ على بابها للنزول .. نظرتُ يميناً وشمالاً، رأيت حارة واسعة من حواري مخيم عقبة جبر، الذي يقبع غرب أريحا، على طريق القدس، المطار لا يختلف كثيراً عن تلك الحواري، أرض ترابية وغرفة واحدة لختم الجوازات، أنا الآن في سلطنة حضرموت (القعيطي)، فهناك حضرموت أخرى.

كانوا كرماء معنا، وكانوا طيبين، كانت ثورتهم ضدّ البريطانيين في بداياتها، ما زلتُ أذكر من رجالهم عبدالله الملاحي، ومحمد غريب وصالح السكني، ولا أنسى العم صالح اليهري ضابط المدرسة، فما زال طعم السمك المشوي الذي كان يصنعه لنا

حاضراً في الذاكرة، وامتدت ثورتهم من عدن وجبل شمسان، وكما غنى أبو بكر بلفقيه (جبل شمسان فيك الموت الاحمر) أقول امتدت إلى المكلا وغيل با وزير وغيرها من البلدات ..

وعندما عاد السلطان غالب من رحلة إلى جـــدة، خرج له قارب عليه مجموعة من الضباط والجنود، وطلبوا منه أن يعود أدراجه من حيث أتـــى، وعاد وانتهت سلطنة القعيطي لتصبح جزءاً من جمهورية اليمن الجنوبي.

كنا مجموعة من الشباب الفلسطينيين، بعضنا من الأردن والبعض الآخر من غزة .. وقفنا مع إخواننا في المكــلا، فنحـــن حيثمـــا كنـــا، نحمل فلسـطين بين حوانحـــنا.

أسطوانة المدير مشروخة

هذا يوم رائع، فنحن في عطلة نصف السنة ونسيم الربيع يبعث في النفس إحساسا بالراحة وشعورا بالاستجمام.

كنت جالسا تحت الشباك والنسمات الكسولة تداعب الشعيرات القليلة المتبقية فوق رأسي .. سرحت بخواطري بعيدا .. ورحت أقلّب أسطوانات عمري الكثيرة العتيقة .. تسمّرت عيناي على واحدة منها..

إنها أسطوانة تحوي لوحات ذوات ألواح ودسر. نفضت عن الذاكرة غبارها لأستعرض ما يحويه جوفها من ذكريات عفا عليها زمن وأسدل عليها ستار نسيان..

الوجه الأول:

شقراء .. مدينة تترامى أطرافها المبعثرة على طريق الحجاز .. تستلقي بيوتها على رمال النفود .. ساحاتها

الرملية تغريك بالمشي حافيا، والمقاهي الشعبية بأسرّتها المرتفعة تدعوك إلى السهر والسمر (هات شاهي- هات أبو اربيع) وتذكّرك بأيام امرئ القيس وهو واقف لدى سمرات الحي ينقف الحنظل في انتظار عنيزة.

والمدرسة الثانوية في الطرف الشرقي من المدينة .. ضخمة البنيان، واسعة الساحات، أمامها مسجد كبير خلفه مساحة ترابية تكفي لبناء قرية صغيرة. هناك في تلك الساحة تقام احتفالات مديرية التعليم في نهاية كل عام دراسي، فتغدو وكأنها سوق عكاظ في أيامه الخوالي.

ومدير التعليم .. رجل فاضل حقا، بعيد عن الدنايا وخصوصا لغة الإنجليز .. قريب من معسكر الفضيلة، ودود هاشّ باشّ دائما في غير ابتذال .. كان احترامه لنا يدفعنا إلى العمل الجاد والتفاني في خدمة العلم والتعليم، وكان سؤاله عنا يعطينا حماما أكثر مما تعطيناه كلّ الفيتامينات المتواجدة في صيدليات منطقة الوشم..

كان يؤمنا في صلاة الظهر عندما نكون في الإدارة، فأحرص على الوقوف خلفه في الصفّ الأوّل، وعندما تنتهي الصلاة أتراجع إلى الوراء لألبس حذائي فلا أجده، يضحك الزملاء ويشيرون إلى سيارة فورد عتيقة تتجاذب جوانحها أطرافها غير مخفية دخانها الكثيف يتلوى خلفها كأنه ذيل مارد انطلق من قمقم وطار بعيدا:

أخذ سعد حذاءك كي تعود حافيا .. اشاركهم الضحك، ونعود جميعا أدراجنا إلى بيوتنا فأجد حذائي عند عتبة البيت منتظرا إياي بينما سعد يقهقه من خلف بابه.

كانت الحياة سهلة وأمور معاشنا بسيطة وراحة البال متوفرة تماما كما يتوفر القلق المضني وينتشر التعقيد القاتل وتفوح رائحة الإحباط في الجيل المعاصر هذه الأيام.

في نهاية العام الدراسي من كل عام، يدعو مدير التعليم أحد كبار رجالات وزارة المعارف لحضور الحفل العام للمنطقة. وكان يطلب مني أن أعدّ قصيدة ترحيبية ألقيها بين يديّ الضيف .. وكذلك فعل في تلك المناسبة.

جاء الموعد وكانت الشمس تميل نحو الغروب، ونسمات من صبا نجد تهبّ في كل اتجاه، والساحة الرملية تكتظ بمئات المدعوين من الطلاب والأهالي وأعضاء الهيئات التدريسية في منطقة الوشم .. جلس وكيل الوزارة وغاص في كنبة ضخمة، على يمينه أبو عبدالله مدير التعليم ووكيله أبو سعد وموظفو الإدارة، بينما جلس على يسار الضيف وجهاء المنطقة يبرز من بينهم المديان .. تاجر لا يقنع بالقليل وله في عالم التجارة صولات وجولات وبخاصة في أوساط المدرسين الجدد .. لا شيء يسرّه أكثر من أن ينتف ريشهم اولا بأول، والويل كلّ الويل لمن يتعامل مع غيره من التجار. في الواجهة المقابلة وقف الجلاّل عريف الحفل يجلجل بصوته مرحبا وقدّم مدير المدرسة الابتدائية ليلقي الكلمة الترحيبية.

تقدّم المدير بخطوات ثابتة وامسك الميكروفون في ثقة من يعلم أنه لا يعلم: بسم الله الرحمن الرحيم، العلم نور والجهل ظلام. ويبدو أنّ الحرارة قد ارتفعت فجأة فجفّ حلق العنقري .. وطقّت الاسطوانة، وامتدّ الشرخ حتى وصل حافتها العظمى، فظلّت الإبرة تتردد بين طرفي العبارة التي نطقها ابتداء .. وسرت همهمة وحدثت حركة عصبية بين الواقفين خلف المدير الوجل، تحرّك شخص وامتدّت يد اختطفت الميكروفون منه .. بينما دفعته اليد الأخرى بعيدا في غير احترام.

لم يطق صبرا فتقدم. هذا هو سعود مدير الثانوية .. رجل قصير القامة دقيق الأنف صغير العينين فيه صرامة الحجاج وفيه خوفه من الغزالة اذا تبدّت.

ألقى كلمته مزهوا كأنه ديك فصيح، بينما انزوى الآخر مغلوبا يرتجف في ركن قصيّ .. ألقيت من موقعي نظرة استظهر الوجوه: فوزي الصافي وعلي مجاهد وخضر والطلاّع والمختار ابو محمد – شلة أنس – تبدو عليهم سعادة لا توصف. لقد سقط المدير .. مسكين .. إنه مدير، نعم، ولكنه غير مؤهل لمثل هذه المواقف.

ها هو قد نهض من عثرته ولوى عنقه في يأس المغلوب وعاد إلى بيته دون أن يشعر به أحد.

جاء دوري .. الآن يلقي الأستاذ الشاعر قصيدة ترحيبية فليتفضل.. لمع في عينيّ خبث فريد. مدير التعليم ينتظر قصيدة ترحيبية أذكر فيها امجاد إدارته وصولات المدرسين والمعية طلاب المنطقة .. وأنا أعددت قصيدة فيها قليل من الترحيب وكثير من هموم إنسان ركلته حوادث الدهر بعيدا عن تراب منابته:

هتفت لـه شقـرا تزغـرد	مرحبا أهـلا وسهـلا
بالشوق تنتظـر اللـقـاء	وقـد بـدا لك بـل تجلىّ

ثمّ عرّجت على هدفي:

يـا أسمـر الوجـه الملـوّح	إنهـا شمس البنـادق
طلعت تديـر عيونها الحمـراء	تنـذر بالصـواعـق
هـذي الجماهيـر التـي	تحميك ظهرك كالفيالـق
لا بـدّ أن تمضـي لقطـع	رؤوس صناع المشـانـق

ولفحتني الحميّة فاسترسلت رافعا رأسي مهددا حتى انتهيت ودوّى التصفيق .. ولكن وكيل الوزارة لم يصفق!!

أحسست بتخاذل مريب يدبّ في اوصالي .. كانت عيناي قد انحرفتا عن الجمهور الغفير وتسمّرتا على منصّة وكيل الوزارة ومدير

التعليم .. وفيما بعد، عاتبني المدير عتابا رقيقا قلل من إحساسي بالهزيمة.

مرّت أيام وايام على ذلك الحفل .. وكنت عائدا من الإدارة إلى بيتي ومررت برجل طيب كان يجلس أمام داره..

السلام عليك يا أبا منصور.

وعليك السلام. تعال يا استاذ. شلون محمد عندك ؟ كان محمد أصغر أبناء الشيخ.

محمد زين .. لكنه ضعيف في الإنجليزي.

أنت تدرّس الجليزي !

نعم يا بو منصور.

أنت مدرس زين بس لو ما تدرّس الجريزي.

رحم الله أبا منصور فقد أصاب كبد الحقيقة.

الوجـــه الثانـــي:

كانت نساؤنا يجتمعن عصر كل يوم في منزل إحداهنّ، ثمّ يقررن القيام ببعض الزيارات في اليوم التالي.وذات يوم اجتمعت النسوة وقررن زيارة – حرمة – من أهل شقراء، وقدّمت لهنّ صاحبة البيت الفواكه والقهوة العربية والتمر .. تفضوا كلوا .. هذا (برقدان) ما تعرفونه !!

تغيّر لـون أم أشـرف .. احمرّ وجههـا .. يبـدو أنهـا تـذكرت مصيبتنا في وطنناً وضياعنا في غربتنا، فقالت لصاحبة البيت في غـير خشوع: هذا اسمه برتقال وهو يأتيكم من بلادنا .. أنـا مـن الخليـل وام ايمن من العباسية بلد البرتقال وهذه من يافا أم البيارات. صاحبة البيت لم تفهم كثيرا لكنها شعرت بقلّـة علمهـا في مواضـيع التـاريخ والجغرافيا كما اشعر أنا بضياعي مشرّدا بين هـوان الزمـان وحقـارة المكان.

سعود، إياه، حجّاج المدرسة وقائدها وخطيبها المفوّه .. يقـف أمام طابور المدرسة كلّ صباح حاملا عصاه، يشفط كـلّ مـن يتـأخر عصا على قفاه فيجري الطالب مهرولا وجلا. كان ذات صباح، جاء أحدهم متاخرا..

هو عمدة طلبة المدرسة .. أصلبهم عودا وأكثرهم شراسـة .. بدويّ من بيت المنقور .. لا يفهم نظاما ولا يهاب مديرا ولا يحـسب حساب مدرّس. وصل الباب وتقـدّم غـير هيـاب ولا وجـل. رفـع المدير عصاه إلى ما فوقّ رأسه كأعلى مـا يمكـن أن تكـون .. وصـكّ اسنانه وشدّ قامته القصيرة وتمطّى وعقـد مـا بـين حاجبيـه .. تقـدّم ناصر نحوه ثابت الخطى وفتح ذراعيه وضمهما حول خاصرة المـدير ورفعه إلى أعلا !! نظر المدير إليه وقال بلغة فصيحة: أنزلني برفق.

فعل ناصر ذلك وبهدوء سار نحو صفه وكأنّ شيئا لم يكن. لكنّ المدير قرّر أن ينتقل من المدرسة الثانوية إلى المدرسة الابتدائية .. وكذلك كان.

هنا بدأت معاناتي مع المدير الجديد .. رجل في اواسط الثلاثينات من العمر، نحيف البنية عصبيّ المزاج، دقيق الوجه، كثير التدخين (في البيت فقط) لم يعمل في أيّة مؤسسة تعليمية قط. كلّ خبرته في دائرة الجوازات.. مفتش جوازات.

من هنا كانت صرامته الواضحة تعبيرا عن قلة خبرته الإدارية، وممارسة لعمله السابق المبنيّ على الشكّ ومواصلة التدقيق. دخل غرفة المدرسين .. ألقى تحية الصباح وقال: أنا عبدالعزيز، ثمّ أدار ظهره وتوجه إلى غرفة الإدارة وجلس على الكرسي الدّوّار يحركه في كلّ اتجاه. بعد هنيهة جاء الفرّاش: انت يا استاذ، المدير يبيك !

- هل أنت الذي تقوم بعمل جدول الدروس ؟
- نعم. أنا.
- اعمل لنا جدول جديد مراعيا كذا وكذا.
- إن شاء الله.
- أبيه بكره الصبح يكون جاهز. شكرا.

حظي مع المدراء طين أسود ونيلة مكررة .. يستغلون طيبتي ورغبتي الصادقة في العمل. يأمرني وكأنني أعمل سائقا عند أمه .. هذه هي ضريبة الغربة. وبعد أسبوع وصل مدرس جديد .. أرسل المدير في طلبي: وصل مدرس جديد .. نبي جدول جديد .. بكره، هاه !! وتتكرر العملية أربع مرات في بداية العام الدراسي وانا أكتب جدول الدروس طائعا راضيا بالمقسوم ظانًا أنّ الرجل يحفظ لي هذا الجميل.

ذات صباح .. دخلت غرفة الإدارة. نظرت إلى ساعة الحائط. الساعة متأخرة عشر دقائق .. ضبطتها وخرجت ثم عدت بعد قليل، وكان المدير جالسا هذه المرّة .. وإذا الساعة متأخرة عشر دقائق مرة أخرى. مددت يدي إليها لأضبطها .. فإذا بزئير المدير من ورائي يجلجل:

من أمرك بضبطها؟

إنها متأخرة عشر دقائق وقد ضبطتها قبل قليل.

أتركها هكذا .. أنا أريدها هكذا..

يا رجل انا لم أخطئ .. ثمّ قلت كلاما أكبر من ذلك وأوجع.

أخرج من هنا. لا تدخل غرفتي. كان هذا إعلانا بإفلاس المدير في الإقناع.

سأخرج. ولكن إياك أن تطلب مني شيئا بعد الآن.

وخرجت مذموما مدحورا.

صالح، مدرس الرسم، شاب وسيم ورقيق لكنه يحب نقل الأحاديث من طرف إلى آخر .. كان يأتيني كل يوم ينقل إليّ ما يريد المدير أن يقوله لي، وأنا أردّ عليه من خلال صالح. جاءني يوما يقول: المدير سيلغي عقدك.

فأجبته: – وكنت قد رتبت أموري مسبقا – ابلغ صاحبك أنني سأنتقل من التعليم إلى جهة أخرى.

وظلّ صالح ينقل الحوارات بيني وبين المدير حتى نهاية العام الدراسي.

كانت النتيجة أنني تركت التعليم سنوات طويلة. وذات يوم التقيت المدير في سوق بالرياض وسلّمنا في غير شوق .. وسألته: أين أنت اليوم ؟

قال: تركت التعليم وعدت مفتشا في الجوازات.

رحم الله ايام زمان.

حوار .. سمعان/ طرشان

حدثتني ذاتي ، بعد معاناتها، وقالت:

قبل أيام ركبتُ سيارتي المتواضعة، من وادي السير، ودونما هدف ذي بال، قررتُ أن أتوجه إلى مدينة صويلح، قلت .. أرى عزيزاً عليّ هناك.

وكعادتي، ويا لسوء عادتي، ما أن تنطلق بي السيارة حتى أسرح بخواطري بعيداً عن الواقع، وتأخذني أحلام اليقظة في كل اتجاه كأنها رياح عواصف تحمل ريشة ناعمة خفيفة الظلّ، فأنظم شعراً وأرسل نثراً وأسافر وأجوب زوايا الكون الأربع .. أعشق وأفرح وأهيم .. .. ثمّ ينقطع بي الرجاء وتتغيّر ملامح محياي حسب الحالة الدقيقة التي أعيشها آنئذ....

وما هي إلا لحظات، حتى كنتُ وراء طابور طويل من السيارات تقف أمام إشارة المرور عند بوابة المدينة الطبية، والإشارة الحمراء تحملق في عيون السائقين تمنعهم من العبور، كأنها نمرٌ متوثبٌ يقف في طريق مجموعة من الآرام فيصعب عليها أن تجتاز

إلى جدول ماء اعتادت وروده، وقد بلغ بها الصدى مبلغا، فراحت تتأهبُ تريد سبيلاً إلى المبتغى.

هنيهة، وانطلقت السيارة تنهب الأرض، وانطلقت معها الأبواق تعلن عن فتح الطريق نحو المجهول، وبلغتُ الكوع .. امتدّ بصري بعيداً محلقاً ليسرح من جديد، وتهيأ لي أني رأيتُ شيئاً يتحرك حركات بهلوانية على يمين الطريق، بقيتُ ساهماً .. واقتربتُ من الشيء، وفجأة انتبهت .. (لا أدري حتى الساعة، لمَ ظننتهُ كلباً هولنديا) !! كان رجلاً مكتمل المظهر، يلبس بدلة مكوية ويحمل على ساعده الأيمن بالطو (معطفا) نظيفاً، كان شعره مسرحاً بعناية فائقة، وكأنّ الرياح لعبت به على استحياء..

دستُ الكوابح، وتوقفت السيارة غير بعيد عن ذلك الرجل،، فتقدم بطيئاً، وفتح الباب الأمامي وألقى بحمله على الكرسي بجاني، وسحب نفساً عميقاً ً وزفر بمثله، ثم طفق يضحك ويضحك ويضحك... .. ثم انقلب الضحك إلى قهقهة ثم إلى قهقهات..

أدرت وجهي نحوه وابتسمتُ له وعلى وجهي ألف علامة استفهام ؟؟؟؟ بعدها، سمعتُ نباحاً إنسياً ً شقّ طريقه إلى أذني

يقول: لقد سرتُ من المطار إلى هذا المكان سيراً على الأقدام، وتفحّص وجهي تفحص خبير، ودقق في حبات عيوني، ثم قال: أنا الدكتور -------- ، وأكمل: همهمهمهمهمهمهمهم .
فأجبتُ:

لململململململململم ! قال: دمدمدمدمدمدمدمدم ...

قلت: كمكمكمكمكمكمكم ؟

وانتهى الحديث عندما وقفت السيارة في وسط صويلح عند نهاية الجسر المؤدي إلى العاصمة عمان، مددتُ يدي إلى جيبي وتناولت عشرة دنانير وأعطيتها للرجل، فقال: اجعلها اثني عشر .. فأمامي مشوار طويل لحو الشمال. قلت: حاضر. وناولته دينارين أيضاً.

أما همهمته ودمدمته فقد كانت: (أنا متزوج من امرأة هولندية، أخذتها إلى المطار مع ابنيها، ولما دخلوا الصالة الداخلية، عاد أحد الأبناء وأعلمني أنني لم أعطهم نقوداً، فناولته محفظتي وفيها كل نقودي، وبذلك اصبحت مفلسا، ولم أجد من يوصلني من المطار إلى عمان ووووو).

لا أدري لماذا عادت إلى مخيلتي صورة الكلب الهولندي وأنا أناوله بقية المبلغ، لكنه شجعني على الدفع قائلا بلسان عربي مبين:

يوم الأربعاء بعد ثلاثة أيام سازورك وأردّ لك المبلغ ومعه تنكتا زيت زيتون..

نزلنا من السيارة وهجم الرجل عليّ يقبل كتفي مرة إثر أخرى، حتى أنني سرحت بخواطري مرة ثانية وتخيلت نفسي أميراً تعبق عباءته الحريرية الشفافة بمزيج من روائح البخور والباكوراباك. فقلت له وعلى شفتيّ طيف شهامة عربية متخاذلة: يا رجل، إذهب بيمن الله ورعايته ونشوفك الأربعاء على خير.

أسرع الرجل نحو حافلة متجهة إلى عمان كأنه قطّ مذعور .. وبسرعة البرق الخاطف رأيته في صورتين:

الأولى – كانت داكنة غير واضحة المعالم .. صورة لرجل يحمل في يمناه تنكة زيت، وفي يسراه اثني عشر ديناراً ويكاد يبتسم .. والثانية – وكانت واضحة وضوح الكوكب .. صورة كلب هولندي يقفز إلى داخل الحافلة ويغيب..

انتهت ذاتي من سرد حكايتها إلى ذاتي .. تفرستُ فيها حيرانا ولم أجد ما أقوله سوى (الله يعوض عليك).

الحكيمــــة وصاحباتهــا

رأت الحكيمة مجموعة من صاحباتها جالسات بصمت، جاءت وجلست بجوارهنّ محترمة ما هنّ فيه من صمت إلى أن شعرن بوجودها .. رفعت إحداهنّ رأسها نحو الحكيمة وقالت:

علياء: وأخـــيراً !!

الحكيمة: وأخيرا ماذا ؟

علياء: مستقبلنا ؟ ألا نفكر في مستقبلنا؟

الحكيمة: عجباً ! لأول مرة أسمعكنّ تتحدثن عن مستقبلكنّ!!

علياء: ما وجه العجب؟ أليس لنا ماض وحاضر ومستقبل مثل جميع المخلوقات ؟ إننا نعيش حفاة عراة .. لا ذهب ولا فضة!!

الحكيمة: شيء جميل ! أهذا ما يشغلكنّ الآن !

حميدة: هذا ما يشغل اليوم كلّ إنسان .. إنّ الناس من حولنا تفكر في الذهب، وتُعيش للذهب وتتنفس بالذهب.

الحكيمة: فلتفترق إذن ! ما الذي يرغمنا على هذه الصداقة؟

سلمى: أنا مع الحكيمة، إذهبن إذا شئتنّ وابحثن عن صاحبات من ذوات المال، يغمرنكن بالذهب والفضة، كي تشعرن بالدفء.

علياء: وهل نحن نشعر بالدفء الآن ونحن مفلسات؟

الحكيمة: بالطبع نعم لو كان لكِ قلبٌ يعرف حرارة الإيمان.

حميدة: يا لهذه الكلمات ! إنك تكسيننا بالكلمات .. وتشبعيننا بالكلمات .. ولا نجد عندكِ غير الكلمات!

رفيقة: هذا من سوء حظنا!

سلمى: اسمعي .. إني لا أطيق احداً يحقّر الكلمات والأفكار! إنّ الكلمات هي التي شيدت العالم وأوجدت المبادئ والأديان.

حميدة: تريدين أن تقولي إنّ الذهب عدوّ المبادئ والفكار ؟

الحكيمة: بلا شك. لأنه ينسي الناس المبادئ والقيم النبيلة .. ينسيهم المحبة والعدل والمساواة والتّراحم.

سلمى: المثل العليا والمبادئ فقدت قيمتها في سوق الذهب .. الذهب أعمى بصائر الناس ولعب بعقولهم، المال أصبح هو السيد المسيطر .. من يملك المال يصبح سيداً.

رفيقة: إذا كان هذا هو قانون هذا الزمان، فلماذا تطلبن منا أن نخرج على القانون؟

علياء: نحن نمشي مع الزمن .. والذهب هو المثل الأعلى في هذا الزمن .. وما دامت الكلمات قد ذهبت سيرتها، فأنا كذلك أخلع عن نفسي هذه البدعة. أنا مع المال .. تباً للفقر والحاجة.

الحكيمة: أيتها الجاهلة العصرية .. إنّ الأفكار والمبادئ ليست من البدع، أنظري حولك تجدي شعوبا تبذل دماءها من أجل الأفكار والمبادئ، تقاتل من أجل نيل كلمة .. هي كلمة الحريـــــة لا من أجل المال.

رفيقة: إنك تدهشيننا .. كيف يستطيع زمن واحدٌ أن يجمع كل هذا؟ دماء تسيل في مجرى وذهبٌ يسيل في مجرى آخر !! كيف يعيش الفقر والغنى جنبا إلى جنب؟ أليس هذا عجبا؟

سلمى: لقد اجتمع هذا وذاك في كل زمان ومكان .. منذ بدء الخليقة والعظَمة تسير إلى جانب الحقارة .. والسمو يسير إلى جانب التدهور .. ولكنّ العبرة،، أي الطريقين تختارين لنفسك ولأمتك .. هل تختارين المال مع العبودية له، أم الكرامة وحرية الإنسان؟

علياء: إذا سألتِــني أن أختار لنفسي فإني........

سلمى: تكلمـــي !

علياء: دعني أفكر !! اريد أن أفكر، فليس هذا بالأمر اليسير .. هذا زمان العجائب!

الحكيمة: مجرد الـتردد في الاختيـار يجعلـني أحكـم عليـكِ بأنـكِ – إحــــم –

علياء: أتظنينني وحدي ؟ اطرحي سؤالك على النـاس وخيريهـم بين المال والأفكار .. ثم احصي بنفسك عدد المترددين.

الحكيمة: آهـ واللهِ غُلُــب حمـــاري

الأمير

وصبحية و ....

لقد ابتعدوا كثيراً يا سيدي ! والطريق المتعرج يمنعني من اللحاق بهم. ونحن على أبواب المدينة، فهل أعود في اتجاه البحر ؟

من فعل بكِ هذا ؟ تنجبين ولداً سفاحاً وأنت ما زلت في مقتبل العمر؟ تحفظوا عليها وأتوني بأبيها.

كيف يربي هؤلاء الآباء بناتهم؟!

صيف أريحا لا يطاق، تشتدّ حرارته حتى تصل إلى ما فوق الخمسين، كنا نسير إلى جانب الحائط حتى نتوارى عن أشعة الشمس قليلاً ً، أما الأمسيات فكانت محتملة، نرشّ الماء على الأرض فنسمع لها صوتاً وكأنك ترش ماءً على جمر نار، تششششششش، ثم نفرش الحصير ونضع عليها فرشة، ونستلقي على ظهورنا نستمتع بنجوم السماء.

البحر الميت على بعد أميال من أريحا .. وعلى الشاطئ مبنى كبير يسمونه – ليدو – منتجع من الدرجة الثالثة ولكنه الوحيد في ذلك المكان .. لم نكن نعرف ما يدور داخل الليدو، وكل ما نعرفه

أن رواده من الطبقة الغنية، الراقية، يجلسون على كراسي وأمامهم طاولات عليها ما تشتهي أنفسهم، ونحن ندور حول المكان من بعيد، لنتعرف على ما يأكلون وما يشربون .. من بعيد فقط.

كانوا يدخلون في صورة المحترم، ويخرجون آخر الليل في حالة يرثى لها ..

في ذلك المساء، وصل موكبٌ محترم، ثلاث سيارات فخمة، إحداها مرسيدس سوداء، يجلس في الكرسي الخلفي منها رجل تبدو عليه المهابة وبجانبه سيدة ذات جمال واضح، كان يتحدث إليها ويبتسم في سعادة، وهي تبتسم في دلال حجازية، توقفت السيارة عند الليدو ونزل الموكب وتسارع الندلاء يصطفون أمام سموه أو سعادته، لا أدري، نزل الرجل ذو المهابة وأمسك يد السيدة الجميلة، وسار بها نحو مجلسهم ..

سمعنا أصواتاً من داخل الليدو، تحرك تحرك، بسرعة، خذ الكؤوس، خذ هذا الشراب أولاً .. لا تنس المازة .. لم نكن نعرف ما المازة .. فهي كلمة غير دارجة في أوساط مجتمعنا.

ودارت الكؤوس ودارت معها الرؤوس، وقامت السيدة الجميلة فوقفت على أطراف أصابعها وراحت ترقص في سعادة غامرة، نحن من مكاننا القصي، كنا خائفين، كنا خائفين من أن

نصرخ فهتفنا بصوت خافت: إنها نجوى فؤاد، وهتف آخر: لا هذه سامية جمال، وأكد ثالث أنها سهير رمزي .. راقصة من الصف الأول.

في الطرف الآخر من مقهى الليدو، كان رجل يجلس مع زوجته ، يشربان الشاي على ضوء هلال أغبش، كان الرجل يستمتع بشرب الشاي ويمسك يد زوجته في حنوٍ واضح، وكانت الزوجة ذات جمال أخاذ ، كان شعرها الكستنائي يتماوج مع نسيم الليل، وكانت عيناها تشعان سعادة ودلالا، وكانت وزوجها ترقبان طفليهما يلعبان برمل الشاطئ .. يقتربان من الماء المالح، يرشقان بعضهما بالماء، يضحكان ثم يعودان، يجري ظلهما بينهما فأصبحا كأنهما أربعة..

ألقى سموه أو سعادته نظرة نحو المرأة، دقق النظر جيداً، عصر جبينه كمن يتذكر شيئاً أو كمن يريد أن يقرر أمراً .. نادى نادلاً، همس في أذنه كلاماً، انتفض النادل قليلاً ونظر نحو الزوجين، وأشار بيده نحوهما، وهزّ رأسه علامة الإيجاب. رأيناه يتجه نحو الزوجين ويخاطب الرجل:

.. .. يريد زوجتك الليلة قبل أن تغادرا.

غامت الدنيا في وجه الرجل، أطرق مفكراً، قال لزوجته كلاماً، ثم قاما وتوجها نحو سعادته، وأقبلت عليه المرأة، اقتربت منه كثيراً وهمست في أذنه كلاماً جعله يضحك حتى كاد أن يستلقي على قفاه.. ثم اختطف من خدها قبلة سريعة، وقال كلاماً..

الصغار أذكياء وفيهم من الخبث ومعرفة الحيلة، الكثير، تجادلنا فيما يجري، وكنا على صواب، دخل الرجل وزوجته إلى قاعة الليدو الداخلية، ومنها إلى سيارتهما من الباب الآخر، واختفى الطفلان معهما، وفي سرعة خاطفة كان الرجل يقود سيارته متجهاً نحو القدس .. المسافة لا تزيد عن ثلاثين كيلومتراً، الطريق متعرجة بين سلسلتين من الجبال، ومقام النبي موسى على يسارهما، وفطن سعادته أو سموه إلى ما جرى. ضرب الطاولة بيديه، فاهتز كل ما عليها، ورأينا زجاجات يسيل منها سائل يفور .. خمناه ، سفن أب، اندلق السفن أب وأصاب فستان السيدة الجميلة، التي وقفت حائرة لا تدري ماذا تفعل .. واتجه ذو الهيبة إلى سيارة المرسيدس السوداء، تاركاً وراءه السيدة، وهو يحث السائق على اللحاق بالزوجين .. لم يكن الأمر سهلاً .. قال السائق: لقد ابتعدوا كثيرا يا سيدي، والطريق لا تسمح بسرعة أكثر ..

انطلق .. أريدها الليلة.

وانطلق السائق بكل سرعته، وأصبحا يريان السيارة أمامهما، ولكنهما كانا على أبواب القدس، وظهرت سيارات كثيرة على الطريق ..

سيدي، الناس هنا كثيرون كما ترى، فهل نعود إلى البحر ؟

ودمدم سعادته، في غيظ: عدْ ولكننا سنعود يوماً وسوف نجدها هناك.

الحب واحد .. والقلب واحد .. سواء كان قلب أمير أم قلب حقير. والفقر .. لوكان رجلاً لقتلته.

وحكاية صبحية تتكرر كل يوم.

كانت عاملة في مزرعة، كانت في السابعة عشرة من عمرها، فتاة من الريف الفقير، أو قل من المخيم، وتناوب عليها ذئبان في المزرعة، وبعد شهور أصبحت العاملات الأخريات يتهامسن ويتغامزن، وأصبحت لا تقوى على العمل مثلهنّ، أصبحت أكثر بطئاً، واعتزلت مجلسهنّ عند ساعة الغداء، يفترشن الأرض ويضعن مناديل تحوي حبات من البندورة والبصل وقليل من الملح وخبز عربي، وأحياناً لبن منزوع الدسم..

ووقفت أمام ضابط المخفر .. من فعل بك هذا؟

المدير.

كيف فعلت هذا ؟ أمتزوج أنت؟ ألك أولاد ؟

أنا لم أفعل هذا يا سيدي .. وأنا متزوج ولي أولاد..

من شارك معه في هذا ؟

العامل فلان.

هل فعلت هذا بالاشتراك مع هذا ؟ طاخخ. ومسّح رقبته بكف غليظة..

نعم يا سيدي .. نحن معاً فعلنا هذا.

وولد طفل بريءٌ، ووضع في المبرّة، وأعطي اسمين بديلين لأب مجهول وأم مجهولة.

لقد فعل بنا اليهود أكثر مما فعله الشيطان بأبينا آدم –

الذئب الأغبر وكومة القش

على ضفاف نهر صغير، يمتد من الشمال مهرولاً نحو الجنوب، كانت هناك غابة صغيرة تتطاول أشجارها، وتتعالى أغصانها، وتتسابق نباتاتها المتسلقة بحثاً عن الهواء والضياء ..

كان الجوُّ صحواً، وكانت الشمس تشرق كل يوم، حتى في أيام الشتاء، كانت الشمس تشرق كل يوم تبعث الدفء في أوصال حيوانات تلك الغابة الصغيرة، وتيسّرُ النماء لكل أشجارها، حتى المتسلقة منها.

كان الجوّ صحواً، وكانت صغار الحيوانات تجري فرحةً نشوى، هذا ينقنق وهذا يصفر وذاك ينبح وتلك تصيء، وطيورٌ مزركشةٌ وادعةٌ تنتقل من غصن إلى غصن تحمل أحلامها الجميلة الدافئة بين طيات جوانحها، كما تطوي خوافيها بين ريشات أجنحتها. كلٌّ يلهو ويلعب ويستمتع بدفء الشمس في النهار، ويستعذب نور القمر الطالع في كبد السماء رافعاً ستائر الظلمة عن تلك الغابة الناعسة.

في وسط تلك الغابة الجميلة، كانت هناك كومةٌ من القش، حيث تجمعت سيقان القمح الصفراء وسنابله الذهبية الفارغة، جمعتها الرياح الدوارة، فصارت كومة، سكنتها الجنادب والسحالي،

حتى الحمائم والفراشات. وفي الطرف الآخر اتخذ غراب البين عشاً له، أفرخ فيه، وفوق تلك الكومة وقفت البوم بعينيها الواسعتين الذهبيتين، تنتظر فأراً تودعه أحشاءها الفارغة .. وكلب ينبح في البعيد .. وذئبٌ يردد العواء.

وذات يوم .. اغبرّت الغابة .. وعصفت الرياح بأعاليها وأسافلها .. وغطتها سحابة دكناء، .. لم يكن مطراً .. كانت عاصفة.. قالت البوم لنفسها: هذا نذير شؤم .. وأدارت رأسها وهوت إلى عشها في كومة القش.

ووصل الذئب الأغبر ناحية الكومة، وراح يدور حولها وهو يغمغم: لقد سرق أحدهم شيئاً من جحري .. لقد سرق شيئاً لا أعلمه .. ولكنه سرق شيئا .. وإن لم أجد ذلك الشيء، فسأشعل النار في كومة القش كلها .. وليذهبوا جميعاً إلى الجحيم.

وأشعل الذئب النار في كومة القش .. فاشتعلت .. واشتعلت الغابة.

رفعت البوم رأسها مستنكرة وقالت: ليته لم يفعل .. ليته لم يفعل.

(هي قصة رمزية لما يفعله اليهود بأهلنا، بسبب أو بدون سبب).

يا بو العيون السود..

كان لا بدّ من وضع حد للإشاعة، ففي لقاء الصباح، أطلق المدير ابتسامة باهتة كأنها همسة ندامة، وقال: نعم. في سبتمبر المقبل سننتقل إلى السكن الجديد .. هناك شقق خاصة بالمتزوجين، وأخرى خاصة بالعزاب، وسيكون لدينا مساحات خضراء وملاعب وبرك سباحة وسوبرماركت، كل الخدمات ستكون متوافرة في السكن الجديد. أدار رأسه ذا الشعر الرمادي يمنة ويسرة، يستنطق الملامح .. الوجوه السمراء احتفظت بهدوئها، معبرة عن الرضا والاستسلام كعادتها، بينما تغضنت الوجوه الشقراء والحمراء، واهتزّت خصلات شعر بعض السيدات معبرة عن النفور والتشاؤم، وغمغم بعض السادة واتسعت حدقات العيون الزرقاء معبرة عن الرفض والاستهجان ..

أحسّ المدير بكل هذا الرفض، وفهم الإشارة الصحيحة بوضوح.. فاكمل: قد لا يكون السكن جاهزاً في سبتمبر، فأنتم تعرفون الطريقة التي يتسم بها إنجاز العمل هنا، بطء شديد ولا مبالاة.. فلا داعي للقلق من الآن، وسوف أوافيكم بما يستجد حول هذا الموضوع.

انتهى اللقاء الصباحي هذا، وخرجنا من غرفة الاجتماعات، ويدأ كل ٌ يطلق رفضه بشكل علني .. قالت ذات عيون زرقاء: لم أتعوّد على السكن في شقة،، كيف يجبرونني على سكن شقة الآن !

أنا سأرفض ذلك السكن. وتردد من جانبي رطن رجل هادئ يهمس: كيف يحدث هذا ؟ لقد خرجت ُ من شقتي قبل شهر من الآن .. واشتريت عفشاً وسيارة .. لقد أنفقت كثيرا ً من النقود على هذا الأمر .. هل أبيع ما اشتريته بخسارة لأعود إلى سكن شقة مفروشة ؟!

إنني خرجت ُ من الشقة بموافقتهم، وأفهمتهم أن ذلك تم ّ من أجل أطفالي، فهم بحاجة إلى حديقة حول السكن .. إن الشقة لا تناسبني، وسوف أقدم استقالتي لو تمّ نقلي من سكني الحالي.

هنا .. بدأت ُ أشعر بمرارة وقهر، ارتجفت عضلات وجهي وارتعشت شفتاي، فما قدرت على التعليق بشيء، ولكنني هززتُ رأسي وابتسمت ابتسامة من لا حول له ولا قوة .. وبماذا أعلق وأنا المستسلم الضعيف الذي لم يكن مقصوداً بكلمات المدير، ولم يكن معنياً حتى عندما فكر اولو الأمر بشأن السكن الجديد !

مضت الأيام ثقيلة متباطئة، كنت قد تناسيت ُ أمر السكن، فهو لا يشغلني في قليل أو كثير، ولا أستطيع أن أبدّل من الأمر مثقال ذرة، ولا أن أفتي فيما لا يعنيني .. فنسيت الموضوع تماماً.

هذا لقاء صباحي ٌ آخر .. التقى الزملاء جميعاً، الساعة الآن السابعة، دخل المدير إياه، شبه مبتسم، يريد أن يبتسم للبعض مباركاً، ويريد أن يبدي قلقه نحو البعض الآخر، معزياً. نظر إلى ساعة الحائط، أدار وجهه السمين يمنة ويسرة، كعادته: حسناً ً، إنها السابعة، فلنبدأ. اليوم سنضع في صندوق كل واحد منكم خطاباً يفيد بتجديد عقد عمله أو فسخ عقده! أرجو التوقيع وإعادة النسخة إلينا خلال خمسة أيام. لستُ أدري لماذا ألقى عليّ نظرةً جهلتُ تفسيرها، بدا وكأنه يقول لي – مبروك .. ولكن !!

خرجت من هذا اللقاء مهموماً، شعرت أنني أسير الهوينى وأكاد أجرّ قدميّ جرا، وسرحت بخواطري أبحث عن معنى تلك النظرة.. هؤلاء الآتون من بلاد الضباب، بيني وبينهم نفور اسكنه الله في قلبي منذ خلقني، وقبل هجرتنا الأولى .. سرحت بخواطري بعيداً أبحث عن معنى لتلك النظرة المغلفة بغلائل القضاء، وقد فاحت من حواشيها روائح كأنها قد تصعّدت من جوف قبر قتيل .. سرحت

بخواطري، ويبدو أنني توقفت عـن الخطـو .. فمـا انتبهـت إلا ويـد المدير تربـت على كتفي وهو يقول: تعال إلى مكتبي الساعة التاسعة.. يا للمصيبة !! قلت دون وعي مني: حسناً.

في تلك الثانية، مـرّت بي وكيلـة المـدير، وهـي سيدة تتمتـع بابتسامة صفراء منقوشة على صفحة وجههـا، نظـرت إلـيّ، ألقـت ابتسامتها الصفراء وهزت رأسـها،، واسـتدارت تهـبط الـدرج نحـو مكتبها، رائحة فمها كانت دائما تدل على مكانها، حتى فكـرت في شراء معجون أسنان وأضعه على مكتبها دون علمها..

خذ مقعداً.

بلعتُ ريقـي، شكراً.

عندي خبران، أحدهما حسن والآخر سـيء. بماذا أبدأ.

قل ما تشاء، فكلاهما وارد.

تـمّ تجديد عقدك، وتـمّ تخفيض راتبك.

ودارت الدنيا بالمظلوم، توقـف دماغـه عـن الـتفكير، وكمـن يجلس على حَرّة، ارتعشت يداه ورجفت شفتاه، وزاغ بـصره، إنهـا الحقيقة.. ها هي عيونه الزرقاء تلتمع أمامي، تسبر غـوري وتعـريني حتى أخمص قـدميّ، إنه ينتصر ويتلذذ باحتقاري .. فـالفرق شاسـع

بيننا .. ليس لي ذاك الشعر الأصفر المنسدل على طول عنقي، ولا تلك البشرة البيضاء الصافية، التي تنموعلى أديمها شعيرات كأنها خيوط الذهب الخالص، ولا تلك اللكنة التي تأسر قلوب العذارى. خنطي اللون، من بني يعرب، بني العينين ذو لكنة محلية مختلطة، لا طرافة فيها ولا عجب، وأسوأ من هذا أنني من بقايا قوم عاد وثمود، سقطتُ إلى جُحر الحياة في غفلة من الصيحة والريح العاتية.

ثوان قليلة .. طافت بخاطري كل معاني الحسرة والمرارة والهوان، والهجرة والتهجير، والطواف في أرض الله من أجل لقمة العيش .. قلت:

أهذا ما قرره المسؤولون !

باختصار، نعم، هل ستوقع ؟

ودوّى في داخلي صوت كبرياء مهترئ يقول – لا .. ولكنني رغم ذلك قلت – نعم.

في تلك اللحظة خطر على بالي بيت من الشعر يقول:

أعمى يقود بصيراً لا أبا لكمُ – قد ضلّ من كانت العميان تهديه.

وخارج المكتب كان لغط * يدور بين اثنتين من ذوات الشعر الأصفر والعيون الزرقاء، هذا صوت صاحبة الابتسامة الصفراء يتردد في هدوء .. ودون أن أرى ابتسامتها شممت رائحة نفورها: لن أنتقل إلى الشقة والسبب بسيط، إن كلبي لا يستطيع أن يعيش فيها، إنه بحاجة إلى فيلا، ولن أجازف بحرمانه من رغبته، وسأقدم استقالتي. وهكذا فعلت وانصرفت.

هيلين بينيت تعيش الآن في اسبانيا، ولا أدري إن كان كلبها ما زال حياً أم أنه ودّعها إلى الأبد.

أما أنا فقد بقيت ساهماً منذ ذلك اليوم وحتى اليوم أفكر في كلابهم وفي همومنا.

كريستين القبيحة

(صحيح أننا كنا زميلين، ولقد جاء الوقت الذي يجب فيه عليك أن تسمع ما أقوله، دون نقاش)

ويبدو الامتعاض على وجه صاحبنا، ويفكر ألف مرة في أن يلعن شيئاً، ثم اعتقد أنه يجب أن يفعل شيئاً بدلاً من أن يلعنه. لماذا نكون دائماً، ردة الفعل؟ نعيش في الظل ولا نخرج إلى الفضاء الرحب، فلا نبوح بما يعتلج في صدورنا،وليست لدينا القدرة على قول ما يخامر عقولنا .. إنّ حرية الكلمة هي شئ ثمين، ولا تتاح لنا دون أن نقتطفها من فوق النخل فـــوق.

لقد طوّفت في رحاب الأرض كثيراً، حفرتها ونكشت زرعها، وجنيتُ من ثمارها، وما زلتُ أطلب المزيد من علمها إخالني أقدم وأعطي ما استطعتُ، ولم أبخل بما ملكتُ، وعلى قدر أهل العزم، كما قال شاعرنا المتنبي. قابلت في طريقي أناساً من أروع الخلق، فرفقتهم كانسياب نسيم الفجر، وسيرتهم كانتشار عبق الربيع في الأرجاء، يعطونك ولا يبخلون، يجودون ولا يسألون. وعرفت أناساً قُدت صفحاتهم من الصخر، وتوجّت هاماتهم بنسيج الغبراء.

كنا صديقين حميمين، لا نكاد نفترق حتى كان ذات يوم، وترشح للجنة ما، وترشح غيره، وأوحى لي يقيني أن غيره أفضل منه لذلك التكليف، فاخترت ذلك وتركت صاحبي، فخاصمني إلى الأبد، وصاحب آخر، كم كان طيباً ودوداً، ولما كنا في سفرة إلى بيروت، وأراد أن يعود معي في سيارتي، ولم أتمكن من نقله لسبب قاهر .. باعني بثمن تذكرة لا تساوي كثيراً..

أما كريستين .. وما أدراك ما كريستين..

عملنا معاً لسنوات، عرفتها امرأة في متوسط العمر، استرالية من أصل عربي، ولا تدّعي هذا الشرف بل تنكره بإصرار، عملنا معاً لسنوات كانت خلالها في الظل، تكتب كثيراً من المعلومات وترسلها حتى قلت لها ذات يوم: نحن لا نجد الوقت الكافي لقراءة ما تكتبين.. من أين لك كل هذا الوقت؟ تبتسم في خبث ٍ وتذهب بعيداً،ونحن بسطاء في تفكيرنا، ولا نبحث عما وراء الأشياء، وما عرفت أنها تدير برنامجاً خفياً، تسعى من ورائه لتعطيل الزملاء والزميلات، وتبديد الوقت في ما لا طائل تحته، ولا فائدة ترجى منه .. خصوصاً شباب المستقبل من الطلاب.

مرت ثلاث سنوات، وإذا بها تغادر المكان فجأة، افتقدنا كتاباتها التي كنا نمسحها باستمرار، فقيل إنها لم تعد، وأنها في

إكرانيا.. إنها الآن مديرة مدرسة هناك، وكيف لا .. هي استرالية وفي أكرانيا .. وقد تحررت تلك البلاد من الاتحاد السوفييتي، ويبحثون عمن ينهض ببلادهم من أهل الغرب. غابت وغاب ذكرها.

عندما رأيتها فجأة أمامي بعد ثلاث سنوات، تذكرت الذي يسمونه الفينـــق، قالوا إنه يخرج من تحت الرماد، وهذه هي أمامي بابتسامتها الخبيثة، و هئ هئ هئ التي تلازمها. .. ثم قالت: نحن لا نفارق هذا المكان، سألتها عن صديقة لها أيضا، فقالت: نحن لا نفارق .. تصوروا .. رفيقتها تلك عملت في السعودية، في أصعب أماكنها بالنسبة للحريم، في بريدة، ولبست العباءة سنوات حتى رغبت في المغادرة وغادرت .. أما هنا فلا عباءة ولا قيود.

وراحت تسرد على مسمعي كيف عاشت في أكرانيا، وكيف أنها كانت مديرة مدرسة، وأنها الآن تشغل منصباً محترماً في مدرسة مستقلة، هي رئيسة التوجيه .. فذكرت قول الشاعر:

إذا كان ربّ البيت للـدف ضارباً

فشيمة أهل البيت كلهم الرقصُ

في الأكاديمية التي أعمل فيها، كنت أقوم بأعباء كثيرة، فهي تحت التأسيس وقد تمّ انتدابي لأقوم بكل تلك الأعمال حتى تكتمل

الصورة، أرسلوا لنا مديراً بريطانيا، ولما نظرت في سيرته الذاتية وجدت أنه معلم رسم، وبما أنه يتحدث الانجليزية بطلاقة، فلا بأس أن يصبح مديراً هنا.

قلت في توصيتي: يصلح حاليا ولمدة لا تزيد عن سنتين. ووصل وقابلته وتحادثنا، وعلى عادة الإنجليز، كان أول ما فعله أن اصطدم بي، محاولاً أن يفرض نفسه عليّ بكل الأساليب، ودارت بيننا حوارات مرة، ومكاتبات أمرّ، انتهت بطرده لعدم كفاءته، فذهب إلى الهند مديراً.

مرة أخرى وعلى غير المتوقع، مرت من أمام مكتبي، يا الله، هذه كريستين، تماني، ورأيت ابتسامتها الخبيثة من جديد.. مديرة الأكاديمية !!!!!

سلمتْ وقالت: جميل أن يجد الإنسان حوله أشخاصا مُدربين .. ومن خبرتي الطويلة في خبث هؤلاء أدركت أنها ستدبر أمراً يقهرني.

أيام قليلة، وطلبت مني أن أنقل مكتبي إلى الطابق الثاني، لأنني سأكون أقرب إلى قسم اللغة العربية الذي أشرف عليه، ولما أبديت امتعاضي من طلبها، ذهبت إلى المدير العام، وشرحت له اسبابها،

فجاء إليّ مبتسماً ابتسامة الأبله، وقال: لو كنتُ مكانك لانتقلت من هنا.

بدأ هذا المدير العام حياته معنا حكواتي، شكله يوحي أنه لا يريد أن يفعل شيئاً و لا يحسن إلا الخراريف والسواليف والحكي مع العمال والطباخين..

انتقلتُ إلى الطابق الثاني في انتظار مصيبتها التالية .. وجاءت بسرعة..

(إنّ برنامج البكالوريا لا يسمح بوجود الثقافة الإسلامية ضمن برامجه، ولا يوجد لدينا متسع من الوقت في برنامجنا الأسبوعي لهذه المادة).

تحركتُ بسرعة، وناقشت الأمر مع من يهمه الأمر، ولم يصدّق، وقال إنها لا تستطيع أن تفعل ذلك. وعند نهاية السنة الدراسية كانت قد ألغت هذه المادة وألغت عقد المدرس الذي يقوم عليها ولم يحرك أحدٌ ساكنا. وطنّ في رأسي ألف مرة، أنها تنفذ مخططاً مرسوماً تقوم عليه.

في السنة التالية .. راحت تتصيد الفرص، تأخذ هذا الزميل جانباً، وتحدثه في همس ودود، فأراه وقد تغيّر حاله، وتقلب وجهه،

ولم يعد زميلا ولا صديقاً .. بذلت جهداً مضنياً مع الزملاء ليفهموا طبختها، هؤلاء قوم خبثٌ، لا تأخذوا منهم، إنهم يوقعون بيننا.. جاء الحديث مجدياً مع البعض، ولم يجدِ مع آخرين .. وكانت فاجعة.

قصيرة، ممتلئة، تقص شعرها قصيراً، وتجعله ذهبي اللون، وعيناها كعيني لبؤة .. مستديرتان تبرقان لؤماً وخبثاً، تسير بسرعة الخائف، تتطلع في كل اتجاه، استعملت الجاسوسية مع الزملاء ومع الطلاب، فوقعوا ببعضهم .. وكانت تتفرج على كل ما يجري .. والمدير العام في شغل شاغل مع حكاياته والطباخ وعمال النظافة .. يضحك ويقول جملته الشهيرة: ما الحياة؟ إنها المال والجنس.

حاولت إنقاذ ما يمكن إنقاذه، أسست برنامجاً قويا للغة العربية، والتربية الإسلامية، وأسست مكتبة فيها كتب جميلة ومفيدة، وحاولت أن أوقفها عند حدها، ولكنّ المسؤول الأول عنا لم يكن جاداً في قراراته، فانهارت إرادتي أمام تماديها، وأيقنت أن السكّر الذي وصل إلى الحد الأعلى، لم يعد يبشر بخير.. .. فقررت التنحي.

أبرأت ذمتي وكتبت لكل المسؤولين .. بهذه الحالة المرضية المستعصية، وخرجت من المكان إلى ما هو خير منه .. وبقيت هي.

كنت أعلم أنها ستخرج في النهاية، لكن بعد خراب مالطــة..

نحن الآن في نهاية العام الدراسي .. وقـد أبلغوهـا وصـاحب الحكايات أيضاً، أنهما غير مرغوب في عودتهما.

اتمنـى أن لا تعود كريستين القبيحــة إلى بلاد الخلـيج أبــداً.

قـال أحد أولياء أمور الطلاب: بدل أن تعلم أبناءنا كذا وكذا، أصبحوا هـــاكـــرز.

زوجة أبو جلـــدة

ترقرقت في محجريها دموع غزيرة، ما لبثت أن بدأت تسيل على صفحتي خديها، ثم راحت تنشغ في محاولة صامتة، وأطفالها الصغار يتطلعون إليها في ذهول من لا يعلم ما يجري. ألقت عليهم نظرة حزينة، كانت تشعر أنها مقيدة إليهم بأمراس لا فكاك منها، وغلبتها عاطفة الحب فانطلقت من باب البيت في اتجاه من أحبّت.

توفي أبو جلدة بعد إصابته بالسرطان، لم يكن هذا المرض شائعاً في تلك الأزمان، فكانوا يكنون عنه، بالمرض الخبيث. ترك الرجل خلفه زوجة في أوائل الثلاثين من عمرها، تحتها ولدان وبنت، كانوا صغاراً في ربيع الورد، وكان الحال جدباً كحال الربع الخالي.

لم يكن أحدٌ موسراً من أهلهم، الكلّ سواءٌ في الجدب وقلة التحصيل، وكانوا يعيشون في بيوت من الطين مسقوفة بالقش الممزوج بالطين، بالكاد يقيهم شمس الغور وشتاء أريحا النادر .. ولكنه بيت على كل حال.

الأزقة الضيقة بين البيوت، كانت مسارنا، وكانت لهونا وأماكن تجوالنا، ومع اشتداد الحرارة كان العرق يتصبب من رؤوسنا إلى أخمص أقدامنا، حتى تبتل ثيابنا، فنجري ونجري ونجري ثم نقف

في ظل جدار، فتهب الرياح وتبترد أجسادنا، نشعر بفرح غامر أننا صنعنا مكيفات طبيعية دون تكاليف.

نصحو مبكرين .. قبل شروق الشمس، لأنها إن أشرقت فسوف تحرق وجوهنا بلهيبها، كنا ننام في ساحات تلك البيوت، فلا مجال للنوم في غرفة، فالبيت كله غرفة وساحة وباب خشب، يستأثر الأب والأم بالغرفة وتبقى مجموعة الكائنات في الساحة، وعلى علاتها، كنا نستمتع بليل رائع، ليل داج، لا كهرباء ولا أصوات، فإما أن تكون النجوم متنشرة في كل بقاع السماء بالملايين، متلألئة كأنها مصابيح شديدة الإضاءة .. وإما أن يطغى علينا نسيم المساء رائقاً بارداً، كل يستلقي على فراشه .. على حصير .. نضحك كثيراً ونختلق النكات والروايات عن زملائنا من طلاب المدرسة، والمعلمين.. يوم كان المعلمُ معلماً .. بنطلون كاكي حدّه كحدّ السيف، وقميص كاكي خفيف، مكوي .. وكان المدير يومئذ، شيئاً آخر .. كنا نرى المعلم في الشارع من بعيد، فنتجه ُونأخذ منحى آخر، كنا نحترمهم وكنا نخاف بعضهم، فقد كانت العصا أداة مهمة في التعليم، وبعدما اختفت العصا، أصبح الطلاب بلا خوف وبلا حياء.

اغتاظ أحد الطلاب من الأستاذ حمدي، فركن في زاوية الطريق بين البيوت، وفي يده راجمة حجارة (نُبيطة)، ولما اقترب

الأستاذ، رجمه صاحبنا فأصابت وجه الأستاذ، وجاء في اليوم التالي وعلى وجهه رقعة لاصقة.

انتهت السنة الدراسية، وكنت أذهب إلى إحدى المزارع أعمل فيها، كنا نخرج من بيوتنا قبيل الفجر، مع العتمة، ما كان أجمل القمر في تلك الأيام .. كان حبيباً إلينا، هو النور الوحيد في حياتنا ليلاً .. أسير في الطرقات الضيقة أحمل عصاً خشية أن يصادفني كلب عقور، وأصل إلى الشارع العام الممتد بين أريحا والقدس، فأجد أناساً كثيرين.. رجالاً ونساءً يسعون إلى أرزاقهم في تلك المزارع .. لم تكن قريبة إلينا .. كانت على بعد أميال عديدة .. ويختلط الرجال بالنساء، يداعبهم نسيم الصباح وخيوط الفجر الآتي من الشرق. وكان الرجال يتطاولون علينا نحن الشباب .. أترك البنات وابتعد .. بينما كان بعضهم يغازل صبية أصغر منه سناً أو في سنه .. فلا نقول شيئاً. كان الفقر هو القاسم المشترك بين الجميع .. فقد كانوا غادروا فلسطين قبل سنوات قليلة، وضاعت بيارات البرتقال وأصبحت حبات البرتقال تباع في السوق بالكيلو .. كان أهلنا يضعونها في أكياس – أبو خط أحمر – ويقدمونها إلى جيرانهم دون ثمن.

ارتاح أبو جلدة في قبره، وبقيت تلك الزوجة تعمل في المزارع لكسب قوت الصغار، وفي ذلك الصيف، تعرفت على أحد الرجال

من العاملين برفقتها، يبدو أنه تودد إليها، فأحبتـهُ .. أحبته بعنف.. ويدا لها أنها تستطيع أن تقرر أمراً يخصها، فحياتها هي ملكها، ودارت في رأسها آلاف الأفكار، ما ذنب الصغار؟ أين يذهبون؟ لا بأس أعمامهم بجانبهم يتولون أمرهم .. أريد أن أعيش حياتي .. أنا أحب هذا الرجل ..

وعند الفجر .. كعادتها، وقبل أن تخرج من ذلك البيت، ألقت نظرة على صغارها، هم نائمون الآن، الولدان والبنت .. والظلمة، والنجوم تحدق من علٍ، طافت بها الخواطر حتى أصابها الدوار .. فأغلقت عينيها واستدارت ناحية الباب الخشبي وخرجت، كانت دموعها تجري تبلل وجهها ثم نشغت بعنف .. وارتطمت رجلاها ببعضهما، ولكنها تمكنت من المسير.

في المساء عندما يعود العمال من تلك المزارع، عادوا، إلا واحدة، لم تعد.

انتظر أبناؤها حتى غابت الشمس، سألوا الجيران العاملين .. ولا جواب .. وجاء أعمامهم وقد وجدوهم في حال من البؤس يتيم. كانوا على قدر من الوعي .. سألوا وعلموا أن زوجة أخيهم قد غيبها الضلال، ولم يبيتوا ليلتهم إلا وهي بين أبنائها مرغمة، وتحايلوا على الزمن الجدب معاً ..

اليمــــــا مــــــة

قصة وشعر – نعيم عودة

كانا صديقين حميمين، عبرت بهما الأيام مدارج الحياة، حلوها ومرّها، رشفا من عذب سلسبيلها أيام الرضى وذاقا من حرّ حميمها أيام الشقاق، ولا يبوحان بالكثير، النظرة العميقة الهائمة في أجواز الفضاء، المضطرمة في أخبيتها كأمواج قاع المحيط، والبسمة الرقيقة الشفافة التي لا تقول شيئا وتعبر عن كل شيء، وخفقة قلب لاعج تتبختر في الثنايا يحسان دبيبها بين الضلوع، وآهة قصيرة الأنفاس لا تكاد تبين، ترسم أملا وخجلا.

وامتدت مسارب الأيام تتوالى وأنفاس الشوق تهبط وتعلو، إلى أن كان يوم .. صعدت إلى جانبه في السيارة، وفي هدوء وتودد قالت:

أتوصلني إلى عيادة الطبيب؟

ماذا بكِ ؟ لقدْ كنتِ بخير طيلة هذا الصباح!

لم أكن كذلك .. فقد غالبت نفســــي.

لم ألحظ ذلك منكِ .. كنتُ منشغلا بالنظر إلى اليمامة.

أين ؟

اليمامة .. تسكن هنا .. أرى عينيها القلقتين المستديرتين ورأسها المدوّر الصغير وأنفها الدقيق وبريق ناظريها يخترق جدران صدري غصبا.

أتوصلني ونكمل حديثنا في الطريق؟

نعم.

انطلقت السيارة بهما ولم يتكلما .. كان كلّ منهما غارقا في تفسير ما قيل عن اليمامة .. أيـّة يمامة هذه! وقطع صوتها الرخيم صمت السكون:

أتحب العصافير إلى هذا الحد؟

أحب اليمام.

ولـمَ اليمام؟

أحب يمامة واحدة فقط .. أراها فيشرق فجري، عيناها المستديرتان القلقتان تنقلان مشاعري عن يمين وشمال، تحملان عواطفي في غلالات سندسية ورقاقة النسيم، وأنتهي في ليلتي المحرّق بين آهات الجحيم.

أيتها اليمامة الرشيقة .. اهبطي هنا .. ها هنا عشكِ الدافئ فبيضي وافرخي واهدلي.

لقد زدتني حيرة .. وها قد وصلنا .. أشكرك، سأتدبر أمر عودتي.

ستجدينني في انتظارك .. هنا.

بالله عليك .. اذهب وابحث عن يمامتك.

يمامتي هنا .. هي معي .. ولكنها لم تنزل منازلها بعد. أنا هنا، ستجدينني هنا.

تبدّت في عينيها المستديرتين نظرات استغراب طويلة، اهتزّ رأسها الصغير بحركة عصبية خفيفة، واستدارت.

سرَت في أوصاله ذكرى، وغامت أمام عينيه رؤى، وحامت بين يديه غلالات شفافية الألوان تدور وتدور، رأى عرائس البحور وجنيات عبقر، وشاهد الفتيات الحور يرقصن على تراتيل ملائكة الكون، وذاق طعم الرُضاب من شفاه عذاب.

ما زلتَ هنا؟

آه، لقد عدتِ سريعا!

ظننت أني أطلتُ عليك.

لم أشعر بالوقت.

كنتَ سارحا؟

رأيت اليمامـــة.

إنك تفقدني أعصابي. واهتزّت يداها الرقيقتان، وانتصب عنقها حاملا رأسها مستديرا فيه لون الكبرياء. ستوصلني إلى البيت إذن!

قضيت وقتا ممتعا في انتظارك.

ألم تمـــلّ الانتظار؟

قضيت وقتا ممتعا في انتظارك.

لقد قلتها قبل قليل، إنك ترددها.

أحب أن أرددها على مسمعيكِ، فأنا أطارد أطيافك في ذاتي.

وعلا صوت محرك السيارة يقطع الحديث .. صمَـــتا .. صمَـــتا صمت أهل الكهف .. لا شيء، لا صوت ولا هينمة إلاّ تردد الأنفاس الحرّى تهبط وتعلو، تنقطع وتتصل، وأفكار ورؤى

تبدو وتخبو، طال السفر ووجدا انفسهما أمام طريق مسدود .. نظرا في عيونهما .. ضحكا..

لقد أضعنا السبيل!!

كان وقتا جميلا.

لـم نقـل شـيئا.

لقد قلتُ لكِ الكثير الكثير.

لم أسمع شيئا!

لقد سمعتُ منكِ الكثير.

أما أنا فلم أسمع شيئا!

كنتُ أعيش أحلام اليقظة وأفكر كالليل.

وصدرت عن اليمامة أنّـة قصيرة حبيسة.

كنتُ في حلم عميق، شعرت أني أفتح صدري لأحلام يقظة وأفكار ليل.

فتحتْ باب السيارة ووضعت قدمها اليمنى على الأرض وارتفعت القدم الأخرى تستعدّ للخروج الأخير. أما هو فقد علت أنفاسه واستجمع قواه في لحظة حرجة، ونادى....

اســـمعيني.

نعـــــم!

أنا أحبكِ.

أغلقت الباب واستدارت، وكما تنطلق اليمامة طاردها الصقر، أما هو فقد اختلّت معاييره فأنشـــــــــــد:

أنا وأنتِ وأنسام الهوى عَلَمٌ   بين المحبين وضّاحُ الأساريرِ
نتيه في جنة الدنيا وزينتها   كعطر وردٍ تحلّى في قواريرِ
منكِ الجمال الذي يطغى فنحس   ذاك الذي قيل عنه في الأساطيرِ
وكيف أقتنص اللذات منكِ على   بُعدِ المشقةِ أو نأي المقاديرِ
يا ليتني كنتُ طيرا كي أحط على   أغصانك ثمّ أشدو كالعصافيرِ
ويستقيم لنا عود الوصال فلا   ينتابنا الهمّ من هول المحاذيرِ
أشكو إليكِ ومنك، أنني رجلٌ   جمّ المودة، نسّاء المعاذيرِ
يراكِ قلبي فتهتزّ جوارحه   والعين مشدودة شدّ الأزارير
تنساب منك عيون الشعر مسبلة   تشجو الفؤاد كأنات المزامير
عصفت بي كرياح المزن فانبجست
عواطفي وأطاحت بي أعاصيري
يا رقة البدر والأشواق طائفةٌ   في هدأة الليل تطواف السنانير
لا خير في جنة الدنيا إذا انسلخت
منكِ المودة واحتارت معـــاييري

اليمامة (2)

قالها، وبات هائما يبحث عن مستقر، فلم يستقرّ به مقام ولا هدأ له بال، رسم طيوفا من خيوط الليل، خائفا، كيف سيكون صباح غد !! ثمّ تبسم، أطبق جفنيه مطمئنا، صنع وردة من شعاع الفجر واشتمّ عبيرها..

كان فواحا بأطيب عبير .. ملأ عليه فضاء ليلته، فأشرقت أحاسيسه واستيقظ وعيه جريئا وثّابا..

طلعت الشمس وهو ما بين نوم ويقظة، أيبقى هائما هنا أم يذهب ليراها هناك!! يذهب..

أطلّت وخطت من الباب الواسع ميمّمة شطره، كانت ثابتة الخطو، على محيّاها سيماء الخفر .. عينا اليمامة الواسعتان تطلاّن من فوق وردتين.

ترفّقي، فأنت تطئين أحلامي.

أصبحت قيسا.

وأصبحت ليلاه.

أين ذهبت بأحلامك الليلة ؟

فرشتها تحت أقدام مذللة -- فامشي عليها برفق العاشق الطرب

أين وجدتني ؟

بحثت عنك بين رسوم النوم وأحلام اليقظة، طاردت خيالاتي رؤاك ونصبت لك شباكي، وها أنت بين يدي صياد .. وقديما قالوا: كلّ الصيد في جوف الفرا.

لقد حلّقت بي بعيدا..

هذا الفضاء العظيم الذي ترين .. خلقه مبدع الكون للأرواح العذبة النقية .. مثنى – مثنى .. وجمّله من آجلها بشعاع البدر وزيّنه بالنجوم ورقّقه بنسيم الفجر وعطر الزهر .. ثمّ أرسل من خلاله خيوطا مذهبة لتصحو على أنغامها عيون الساهرين.

أخائفة أنت من ظهور الغزالة ؟

أخاف حرّها .. فأنا أعشق نور البدر أكثر.

وسيبقى البدر ممتدا على طول دروبك.

أسمعني بما يجود به هواك.

كم أناجيك وأشتاق لرؤياك

ولكن..

أنت لا تبقى على حال

فحالي شبه حالكَ

تقطف الأعناب من كرمي

ومن تعبي

ومن كـدّ يدي

أنت تحتال على قلبي

وتسقيني المهالك

لوّعني ما ذقته منك

وداستني سنابك

ضيّعت الأمل الجميل .. عاوده مـرّة أخرى..

سوف أمضي في طريقي

فأنا كالدهر لا يرهبني السير

ولا صوت المعارك

سأزور العشّ مرات ومرات

وأدعو لوصالك.

أنذر يوم ويوم .... وأيام ...

اليمامة لا تبقـــى علـى حـــال .. عيناهـا القلقتـان تـدوران تبحثان عن باب القفص .. كانت تسكن عشا هنيئا دافئا فوق نخلـة، أصلها ثابت وفرعها في السماء .. وكان الذئب يحوم حول النخلة .. يسيل لعابه كلما رأى اليمامة تدرج على الثرى.

تكلفين نفسك العناء إلى القمة، وهنا الحبّ تحت قدميك.

اكاد أرى ذلك.

ففيم الشقاء إذن !

القلق.

إطّـرحيه بعيدا..

كانك ناصح.

أمـــين.

وحطّ حلم صاحبنا على رأس النخلة ، نظر في عشها فوجده خاويا .. يا للمرارة !! اليمامة لا تبقى على حال.

أيتها اليمامة ! أيتها اليمامة !

مـن أنت !!

لقد صوّح القفر وعمّ اليباب.

نزعتك من دنيا عيوني كأنما
نزعت عيون الفجر من بلج الفجر

وقد كنت كالأيام من قبل واحة
فأصبحت كالبيداء عاطلة النحر

ظننتك مصباحا يذوب بشاشة
وينمو مع الأيام منشرح الصدر

إذا أنت قنديل تولّى زمانه
وأخفق، والدفلى تموج على القبر

فيا ويح ليلى كم تعنّى حبيبها
ويا ويح أيام الصبا وهوى العمر

وكان حريًا أن يعيش منعّما
ويسرح في جوّ الفضاء مع الصقر

سما واعتلى والوصل جنّ جنونه
وقلب المحبّ لا يبيت على غدر

فلو أنّ ليلى العامرية أشرقت

لأشرقت مثل النور في زمن العسر

ولكنّ ليلى العامرية أخفقت

فامسكت، والأيام حبلى بما يجري

وما زال أبو العبد حيّـاً

انقضت ثلاثون سنة وهو في غربته القسرية .. ثلاثون سنة انسلخت من شجرة العمر التائه في الأوهام .. ثلاثون سنة محمّلة

بأوهام العودة ومرارة الآلام، صباح مساء، بكلّ ألوان الطيف الحزين المؤمّـل في عودة قريبة ذات يوم .. إليها، والرؤى الخضراء تمتدّ على مدّ النظر، والبساط السندسي الذي لا ينتهي يجول به ابتداء من قريته سابحا حتى يصل إلى يافا .. ويافا حزينة، لقد بحّ صوت النداء.

العائد- توقف هنا ! توقف هنا أيها السائق !! أريد أن املأ عينيّ من رؤى الجنة، أريد أن أملأ رئتيّ من عليلها. هنا أيها السائق ومن على هذه التلّة كنا نقف لنلقي نظرة على القرية في الصباح الباكر .. ونحن سارحون إلى الحقول .. كنا نرى الشمس في مهدها ترسل أشعة بيضاء ثم ترفع حاجبيها من فوق أمواج البحر الأبيض، ويافا الحبيبة تنفض عن ثغرها آهات النوم، ومن شفتيها المزدانتين بألوان الزهر تندفع موجات من عبق البرتقال والليمون.

ايها السائق، أما زلتم تذوقون طعم برتقال يافا؟

من هنا كنا نرى وادي (كانا) الأخضر، ها هو يمتدّ على أطراف القرية الناعسة، كم كنا نسعد يوم نأتيه .. أشجار الزيتون .. التفاح.. عرائش الكرمة .. كلّ الوان الخضار التي تشتهيها النفس .. طيور الشنّار والدرّاج والقطا .. والنبع الذي يفيض في الجدول الرقراق .. يسقي الشجر ويروي العطاش .. غابة وحديقة في آن.

أيها السائق .. أما زالت صبايا القرية يحملن الجرار على رؤوسهنّ ذهابا وإيابا إلى حيث النبع؟ والشباب الذين يصفرون من بعيد ؟ آه..بانوراما حقيقية، جميلة. ثلاثون سنة من عمر الضياع، واليوم أعود. بانوراما .. أليس كذلك أيها السائق ؟

السائق – لقد عدت متأخرا. فقد سافر الزمان واتخذ قطار النسيان رفيقا.

العائد – تبدو متعبا ايها السائق .. هيا بنا .. خذني إلى بيت أخي (أبو العبد)، سيفرح عندما يراني، لن يصدّق عينيه، سيشعر أنه في حلم جميل. سأقبّل يده فهو في مقام أبي، في مثل هذا الوقت من كل يوم كان يدور حول بيته يسقي الحديقة ويشذّب الأغصان ويعلف الدجاج ويجمع الحشيش ليطعم الأرانب. لا يغيّر عادته أبدا.

السائق – هذا هو بيت أخيك.

العائد – هـــذا !! إنه يبدو مهجورا !! أين شجر اللوز ؟ أيـن هي شجرة التين التي كنت أرتقي ؟ أين أبو العبد ؟!

السائق – هناك تحت العريشـــة.

العائد – لا يمكن، هذا أبي ! لا..لا أبي مات منذ زمن بعيد. واندفع كالسهم الضالّ نحو العريشة، وقـف أمـام الـشخص الماثـل أمامه، رجل في أخريات سنيّه .. يجلس في كرسيّ خشبيّ عتيق .. رفع أبو العبد عينيه الكليلتين نحو العائد .. لم يستطع أن ينهض فمدّ يديـه مرحّـبا .. وبسط على صفحة وجهه ابتسامة باهتة.

أبو العبد– أهـلا بالضيف.

العائد – أنا العائد .. أنا العائد .. ألا تقف فأحضنك. وتلقف يديه يقبلهما بينما غطّت سحابة سماءهما وانهمرت دموع.

امقعـد أنت يا أخي ؟

أبو العبد – أنا مقيم هنـا مـذ غـادرتني ايهـا العائـد .. هـذه العزيشة هي مقامي طيلة النهار، فإذا جنّ الليل نقلوني إلى غرفتي.

لشـــدّ ما لاقيت بعدك من عنـــت.

العائد – أين إبهام يدك ؟ ماذا جرى لإبهامـــك ؟

أبو العبد – دفنته هنــا. وأنا أجلس فوقه منذ حينئذ.

العائد – إبهامك .. إبهام يدك مدفون هنـــا ؟

ابو العبد – إن لم أجلس فوقه طيلة نهاري، ولم يحرسه كلبي طيلة ليلي، فإنهم ســيأخذونه.

العائد – يأخذونه !! من هم الذين يأخذونه ؟

أبو العبد – المنافقــون، وهم كثير.

ألقى العائد نظرة نحو السماء، وتمتم بعبارات مبهمة، ثــمّ أدار راسه ناحية البيت.شاهد أم العبد تتقدم ابناءها الشباب.

العائد – أكاد لا أصدّق عــينيّ .. أأنـا هنا حقا ؟

أم العبد – أنت هنـا أيها العائد، ولكـن الـزمن هـو الـذي لا يعود.

ناموا تلـك الليلـة في القريـة .. وكـان الكلـب يحـرس إبهـام صاحبه، حتى إذا أصبح الصباح أفاقوا.

زيت زيتون .. جبنة بلدية .. زيتون أخضر .. زيتون أسـود .. بيض بلدي .. بصل أخضر وفجل أحمر وخبز طابون .. فطـور أهـل القرية .. ما أطيب رائحــة الأرض !!

العائد – يا أخي. يا بقية من ميراث أبي. أريد أن ازور وادي (كانا) فهناك ذكريات الطفولة .. أريد أن أستعيد صور الأيام وأن اقتلع الجزر من الأرض وأغسله في النبع كما كنت أفعل.

أبو العبد – يا بنيّ. خذ عمّك إلى وادي كانا ليرى كيف يسافر الزمان ولا يعود.

اقترب من الوادي .. رائحة التفاح لا تفوح في البعيد، زقزقة العصافير لا تملأ الفضاء. واقترب أكثر فأكثر .. بطن الوادي أجرد.. الأشجار التي كانت تملؤه خضرة استحالت صفراء شبه ميتة. أين الصبايا ! أين الجرار ! أين ماء النبع؟

الشاب – لقد حوّلوا مجاري المستوطنة لتصبّ في وادي

(كانا)، وها هو كما تراه مهجورا. لا خضرة ولا ماء ولا عصافير ولا صبايا. نزحوا جميعا مع الزمان الذي لا يعود.

العائد – (استدار نحو اليسار): هناك أرض عباس .. أين أهلها؟ لا تقل لي هجّروها ايضا !

الشاب – هجروها قسرا.

العائد – من الذي أجبرهم ؟ لا تقل لي الزمان !

الشاب – ذات ليل، وصلت الجرافات إلى أرض عباس، كان الناس نياما، بدأت الجرافات بعمل حفر سطحية ألقت فيها براميل تحوي موادّ غريبة، ومنذ ذلك اليوم والأمراض السرطانية تنتشر بين الشباب الذين اعتادوا أن يمروا منها.

ولم يعد أحد يمرّ من هناك .. من يستطيع أن يمرّ من بين أنياب الموت ؟ أما صاحبك عباس فلم يمت بالسرطان لكنه مات قهرا. كثيرون ماتوا قهرا !! ألم أقل لك يا عمّ إن الزمان ينزح ولا يعود؟

كان المساء حزينا .. العائد ينظر في وجه أخيه، ثمّ يلقي نظرة على إبهامه المفقود، ولا يجرؤ على السؤال. ضحك أبو العبد وقال: أيها العائد. يا أخي. شرّ البلية ما يضحك .. سأجيب عن سؤالك الذي يدور في قلبك.

أرضنا الواسعة التي تعرفها، ارادوا شراءها فرفضت. دفعوا أموالا طائلة فرفضت. هددوني بالقتل ورفضت. وأخيرا جاء المنافقون ذات ليلة، أوثقوني وكمموني وأخذوا إبهامي معهم وغادروا. سلموه للسلطات فبصموا به على اوراق بيع أرضنا. تصوّر .. بصموا على الأوراق بإبهامي وأنا مقيم هنا في بيتي ..

تصوّر! بصموا بإبهامي هناك وأنا هنا!! ويوم المحاكمة طلبت منهم أن يحضروا الشاهد على فعلتهم. طلبت إبهامي وربحت القضية.

أما زلت تعجب لماذا أحرس إبهامي ليل نهار ؟

العائد – هل عاد الذاهبون إلى مدريد ؟

الشاب – يا عماه، يا عماه !

العائد – بماذا عاد الذاهبون إلى شرم الشيخ ؟

الشاب – يا عماه، يا عماه !

العائد – إنكم تحرثون في البحر.

وساد سكون

تململت أم العبد في جلستها ثم اعتدلت وقالت:

أم العبد– لم تسأل عن صديق طفولتك – عيد– ؟

العائد – لقد أضاعت المأساة نصف عمري يا أختاه.

أم العبد – يحسن بك أن تسمع قصة صديقك من أخيك.

العائد – أفيها من المآسي ما هو أكثر من إبهام أخي ؟

أم العبد– فيها، وما أدراك ما فيها.

ابو العبد – صديقك عيد أيها العائد تزوج مبكرا وأنجب تعجب.. أولادا وبنات .. شبّوا وكبروا، بنى بيتا ريفيا جميلا في وسط أرضه، يحرث ويزرع، وفي المساء يعود إلى البيت، تأتيه ابنة عمه بإبريق الوضوء فيتوضأ ويصلي المغرب ويجلس بين أفراد أسرته يتسامرون..

وكما فعلوا بي .. ارادوا شراء أرضه، فرفض، هددوه فرفض، ساوموه فرفض. استولوا على الأراضي المجاورة وسدوا عليه المنافذ والمداخل والمخارج فصبر، وذات مساء ..

دخلت عليه صبية حسناء من الجيران تطلب اللجوء السياسي عنده،

عيـد – أيتركونك وأنت على دين آخر ؟

الصبية – إني الجأ إليك، ولن يجبرني أحد على شيء .. تذكر أننا نعيش في دولة الديمقراطية والقانون. أريد أن أتبعك وأن أكون لك.

عيد– إني أخشاهم فهم يحيطون بي من كل جانب.

الصبية – سأطلب لك الحماية من صباح غد.

عيد – اوتفعلين كل هذا ! ولماذا ؟

الصبية – نحن اصحاب مبادئ وسأقاتل من أجل تحقيق مبادئي. ثمّ إنني أحبك. أراك في المساء وأنت تحمل الإبريق وتتوضأ فينشرح صدري .. هل أقول أكثر من هذا؟

عيد – لا، لا تقولي شيئا. سأهزمهم جميعا بك.

وفي الصباح كانت تقف بجانبه أمام القاضي.

القاضي – ما هو المهر المقدم ؟

الصبية – لا شئ يا سيدي القاضي.

القاضي – وما هو المهر المؤجل ؟

الصبية – قطعة الأرض التي عليها البيت يا سيدي، هذا ضمان لمستقبلي ومستقبل أبنائي منه.

ويكتب القاضي (قطعة الأرض رقم ---- حوض رقم ---- لصالح الزوجة مريم إيشاي عند الطلب)

ابتسم عيد ابتسامة المنتصر وأخذ نسخة من عقد الزواج، بينما اختطفت مريم إيشاي النسخة الأخرى، وخرجا من باب المحكمة إلى الشارع.

الصبية – ايها العربي، أنت طيب .. ولكنك لا تستحق هذه الأرض. بإمكانك أن تخلي البيت والمكان وتغادر خلال أربع وعشرين ساعة. ولوّحت له بعقد الزواج واتجهت إلى بيت أهلها.

العائد – وهل مات قهرا هو الآخر ؟

أبو العبد – لا إنه ما يزال حيا يجوب طرقات القرية مجنونا.

العائد – قلبي .. قلبي !!

واستطال العويل ذاك اليوم حتى افترش دروب القرية ولوّن منازلها بالحزن العميق.

وأخيراً كان اللقاء

تباشير الفرحة كانت تغمر البيت، وكانوا يجوسون ممراته كما تدور النحلات حول خلاياها، الزينة تملأ المكان والبهجة تبدو على صفحات الوجوه، بينما تنتقل الأم من زاوية إلى أخرى كي تطمئن على أن الترتيبات التي كانت تريدها هي على الوجه الأكمل، ثم تنطلق منها زغرودة فرح يسمعها الجيران حتى سابع جار، فيتساءلون: ماذا هناك؟

بعد سنوات من الجهد المضني، والعمل الشاق والدراسة المستمرة والمثابرة التي لا تقهر، وصلت إلى نهاية السباق .. غداً مناقشة رسالة الدكتوراه، هذا الحلم الذي كان يراودها منذ طفولتها .. تعثرت خطواتها على مرّ السنين الماضية، وتعرضت لمضايقات صعبة شتى، توقفت بضع سنوات ثم نهضت كما ينهض الجواد الفتيّ، والتحقت بالركب وواصلت حتى وصلت، لذا كانت الفرحة مضاعفة، وكان عبيرها شذياً زكيا.

خرجنا من المنزل مبكرين، لأننا لا نعرف المكان بالتحديد، وضللنا الطريق أكثر من مرة، وسألنا المارة وأصحاب الدكاكين

والباعة المتجولين في المناطق، أين هي جامعة عمان العربية للدراسات العليا؟ ويأتي الجواب: هناك .. يمين .. يسار حتى نهاية الطريق، أمامك أشجار كينا كبيرة. وننزل من السيارات، وأتقدم الجماعة وأصعد الدرجات الأولى .. خلفي يسير أخي الذي يشبهني كثيراً إلى حدّ التطابق، كان يسير خلفي أمتاراً، وإذا بصوت يناديه: أستاذ نعيم، أستاذ نعيم. .. وهو لا يجيب. فهو ليس ذاك .. لكنه تنبه َ إلى حقيقة تتكرر كثيرا معنا، فاستدار ليرى شاباً لطيفاً يحمل في يده طاقة ورد ويقول له: مبروك لابنتك.

اخذ أخي بيد الشاب وقال له: ذاك هو من تريد، ذاك أخي نعيم، ثم قدمه لي .. كنا نعرف بعضنا جيداً من خلال المنتدى، ولم نكن قد التقينا بعد .. إنما العالم دوامة في علبة صغيرة .. ولا بدّ أن نلتقي.. وها نحن نلتقي الآن وفي مناسبة ولا أحلى.

كل ما كان يهمني بعد أن وضعت يدي في يده، أن أتفرس وجهه لأتعرف على تفاصيل صاحبي، فرحت باللقاء ولكنّ وخزةً أصابت كبدي، وأقولها حقيقةً، لقد مرّ صاحبي هذا بأوقات عصيبة، إنّ العمل من أجل وطن مستباح يقتضي منك أن تكون نخلة في بيداء! أن تبدو أكبر من عمرك الافتراضي بكثير .. ومرت بخاطري شوارد من الأيام الخوالي عندما كنت أرتع ولسنوات طويلة في

مضارب نجد، وأذكر أيام الحمى ثم أنثني – على كبدي من خشية أن تصدّعا.. وذكرت موال الشاعر: الا يا صبا نجد متى هجت من نجدٍ– لقد زادني مسراك وجداً على وجد.....

لم تكن القاعة كبيرة، ولا فارهة، كان يتصدرها أربعة عتاولة من الفاحصين، تنتظم أمامهم طاقات ورد كبيرة، ووضعت ابنتي على يسارهم يحدقون فيها وكأنها كناريّ حبيس في قفص، بين يديها رسالتها وبين أناملها يتقلب قلم رصاص، بدت في قمة التركيز، واثقة، كانت متوثبة، وكنت كحالها متوثبا، بينما وقف ابناها في الصفوف الخلفية وبجانبهم صواني الشوكولاته والعصير والورد، وقد صمما على أن يصيحا: خاوة، خاوة، خاوة .. بمجرد النطق بالحكم. وقد منعتهما من ذلك فلن يكون هذا سلوكاً حضارياً..

الدكتورة التي أسهبت في النقد والنقاش، وكادت أن تتسبب لابنتي بكارثة صحية كالقولون العصبي مثلا .. اكتشفت أنها من بلدة مجاورة لبلدتنا في فلسطين، ففرحت واعتذرت عن غلظتها وشدتها أثناء المناقشة، ولكنّ هذا أصول الشغل.....

لم أجلس في الصف الأمامي أثناء النقاش، واكتفيت بالجلوس حيث جلس صديقي في الصف الثاني .. وتركت مكاني لأخي شبيهي .. وعلقت أم الدكتورة: كان يجب أن تكون في الصف الأول

دعماً لابنتنا! ابتسمت لها في ودّ وقلتُ: أخشى على الحمام أن يطير من أول زيارة .. وهكذا التقينا ثم التقينا ثم التقينا..

شكراً على الحضور وعلى باقة – طاقة – الورد أخي عزام أبو الحمام.

هنا جريمة وقعت

عندما تقف في الصباح الباكر خلف الخط الممتد من مدينة أريحا في اتجاه القدس، وعلى بعد بضعة كيلومترات من المدينة، تكون الشمس الحارقة تتلألأ أشعتها خلفك، ويكون هذا الطريق الشهير أمامك، وتمتد آلاف المنازل الطينية خلف هذا الخط من أريحا حتى تتفرع الطريق إلى شقين، شق يتجه يميناً نحو عاصمتنا القدس، وشق يتجه يساراً نحو البحر الميت. وخلف تلك البيوت ترتفع سلسلة جبال القدس، جبال ليست بالعالية كثيراً وتمتاز بلونها الترابي الفاتح، ولا ترى عليها نباتاً لا في الصيف ولا في الشتاء، إذ نادراً ما تسقط عليها الأمطار في الشتاء.

عندما وصل أبي وجدي إلى هذا المكان في شتاء عام 1948، ومعهما العائلة الكبيرة المكونة من جدي وأبنائه الخمسة وأولادهم، كانت تلك المساحة من الأرض مليئة بأشجار السدر، تمتدّ من مقاطعة أريحا حتى المتعطف المتجه نحو القدس، وكان على آلاف الناس حينئذٍ أن يقطعوا تلك الأشجار لينصبوا خيامهم التي وزعتها عليهم وكالة الغوث الدولية، فتجمع الناس، كل أهل بلدة تجاوروا لأنهم يعرفون بعضهم بعضاً، فأهل العباسية في هذه المنطقة، وأهل

اللد في تلك المنطقة، وأهل بيت محسير في تلك وأهل عنابة هناك وأهل سلمة بجانب أهل العباسية فهم جيران في البلاد ..

بدأ الناس بقطع اشجار السدر، وتنظيف المكان، كلما أزالوا حجرا وجدوا تحته عقرباً أصفر، فقتلوه، ونصبت الخيام وجنّ الليل، حاولنا أن ننام، ولكن خرجت علينا ملايين البراغيث، وراحت تقرصنا حتى هرب النوم من أجفاننا.

وكأن الأمر كان معداً، إذ بدأت وكالة الغوث في توزيع المؤن على الناس، طحين وزيت وسمن وبيض بودرة، وعلب سردين،، وبطانيات، وتمّ وضع خيام كبيرة لتكون نواة لمدرسة للأولاد وأخر للبنات .. كنا بطبيعة الحال نجلس على الأرض ونكتب بطباشير على قطع من الخشب..

استلم محمود نصيبه من الطحين، نصف كيلو، نظر إلى الطحين وقرر أمرا: وزع الطحين في صرر من الورق صغيرة، ويبدأ يطوف على المقاهي وينادي" دواء للبراغيث " وباع نصف الكيلو بمبلغ محترم، وفي صباح اليوم التالي كان الشباب يبحثون عنه، لقد زادت البراغيث عدداً الليلة بعد رش الدواء! سألهم: كيف استعملتموه؟ قالوا: رششناه على الفراش. قال: لا، ليس كذلك،، امسك البرغوث وضع البودرة في فمه، فيموت .. ضحك الجميع، فقد

كانت الحياة بسيطة للغاية، وكانت النكبة في أولها والكلّ مسطول مما حدث.

والحياة تسير على كل حال، ففي أمسيات أيام الخميس كانت تدور حفلات الزواج في المخيم، ولم أكن ممن يهتم كثيرا بتلك الحفلات، إذ قررت من البداية أن أكون دارساً جيداً لأتخرج وأعين تلك العائلة التي كنت أكبر أبنائها ..

وذات ليلة كنت عائداً من بيت صديق لي وقد انتهينا من الدراسة، وكان جدي – رحمه الله – يؤذن في المسجد القريب، وكانت الظلمة تلف المكان، حيث لا كهرباء في المخيم ولا ماء في الخيام ولا في البيوت في ما بعد، وفاجأني رجل يقف في منتصف الطريق .. قف! ما هذا الذي بيدك؟ كتاب .. أين كنت؟ عند صديقي. ماذا كنتما تفعلان؟ كنا ندرس. وماذا كنتما تدرسان؟ جغرافية، هل سمعت شيئاً غير عادي الليلة ؟ لا لم أسمع شيئاً.

هل تعرف صاحبة هذا البيت؟ نعم، إنها أم طالع امرأة عجوز عمياء .. وهل تعرف صاحب هذا البيت؟ نعم إنه الجزار. وهل تعرف أبناءه؟ نعم أعرفهم فهم جيراننا .. إذهب إلى بيتك ولا تخرج الليلة.

توجهت إلى العطفة التي تصل بيتنا، كانت ركبتاي تصطكان من الخوف، هذه أول مرة أقف فيها أمام رجل أمن يسألني عن أشياء غريبة حدثت في حارتنا .. دخلت من البوابة الخشبية ودسست جسدي بين إخوتي على فراش في ساحة البيت الترابية، الجو حارٌ جداً، على الرغم من انقضاء الربع الأول من الليل .. لم أنم كثيرا،، كنت أفكر في أسئلة رجل الأمن .. وبعد منتصف الليل بقليل شعرت أنني أغط في النوم، ولكنني سمعت صوتاً لشيء يسقط في حفرة، شيء معدني وقطع زجاجية تسقط وراءه وظننت أنني أسمع صوت أقدام تتحرك قريباً مني، وصوت بوابتنا الخشبية وهي تتحرك، لم أعط الأمر بالاً وظننت أنني أحلم..

في الصباح التالي، قمت كعادتي، لبست ثيابي وحملت حقيبتي المصنوعة من قماش أزرق، وخرجت من البوابة اللعينة، وتقدمت إلى العطفة، وإذا بجمهور من الناس يقابلونني، ومعهم رجل أمن على كتفيه نجوم تلمع تحت الشمس، ورجال شرطة والمختار، تتوسطهم العجوز أم طالع العمياء، وأشار المختار نحوي قائلا: هذا ابن صاحب البيت. دبّ قوله في قلبي دبيب المصيبة. وتراخت يداي عن حقيبتي فسقطت على الأرض، ووقفت مشدوهاً .. (شو في)؟

وأمسك شرطي بيدي، كانت يده غليظة، وشدّني، تعال معنا إلى بيتكم. وتوجهوا نحو الحفرة الامتصاصية وكانت شبه مكشوفة، وبجانبها شجرة فلفل أسود كبيرة .. تراخيت تحتها من خوفي، وسأل الضابط المرأة العجوز: أين رميت البابور والكاسات؟ قالت: هنا. وأنا مشدوه البال، أحملق فيها وفي الحضور ومصور جريدة، ويسألني الضابط: أنت طالب مدرسة؟ قلت وأنا جالس: نعم. في أي صف: ثالث إعدادي. قال: لولا أنك طالب لطلبت منك أن تنزل إلى الحفرة الامتصاصية لتخرج الأشياء .. كيف تكلمني وأنت جالس! ألم تتعلم الأدب في التاريخ والجغرافيا؟

هزتني عبارته .. ولولا أنني في موقف مخيف، لضحكت حتى تبين نواجذي .. هذا الضابط غير متعلم ولا يعرف أين نتعلم الأدب .. ما زلتُ أذكر اسمه، وقد توفي منذ سنوات، قرأت نعيه في جريدة،، لقد كرهته ..

أما الحكاية فهي أنه في تلك الليلة، كان هناك عرس، وترافق ثلاثة من الشبان، وعند انتهاء الفرح،وكانوا قد شربوا حتى غابوا عن الوعي، قرروا أن يزوروا بيت العجوز العمياء، وهي عمة أحدهم، وهناك اختلفوا على منكر، فقام اثنان منهم بخنق الثالث، ورميه خلف بيت الجزار مع حبل أحضروه من الملحمة، ليبعدوا

الشبهة عنهم ويلصقوها بأبناء الجزار، وقد ذاقوا من العقاب ما ذاقوا دون ذنب، وبعد التحقيق مع من حضر الفرح، كان واضحاً أن المغدور كان مع اثنين معروفين، وأن العجوز على عماها، قررت أن تدفن البابور والكاسات في الحفرة الامتصاصية الواقعة في دارنا لأنها علمت أنها مكشوفة .: وعملتها ..

ألم أقل إن أسرائيل سبب نكباتنا كلها وأن بريطانيا العظمى سبب نكبات العالم دائما؟

إنها الحربُ
وضاعت فاطمة ..

وقفنا على أطراف أصابعنا، واشرأبــت أعناقنا، وبدت الابتسامات واضحةً على كل الوجوه، وصفقنا بعنف عندما دخلت دبابات المحتل لاجتياحنا، ظانين أنها عربية الصنع .. ولما صاح جاري أبو سميح: أدخل إنهم يهود .. اختفى المشهد وظهرت صفحة جديدة موشاة بالسواد.

دخل الناس جحورهم، وراحوا يتشاورون، وكيل وزارة مالية جاء إلى صديقه وقال وهو يرتجف: نحن الآن تحت الاحتلال، ولكنني لن أغادر، سأبقى هنا حتى أموت .. لقد هجرت يافا قبل عشرين سنة وأقمت هنا، فماذا تغيّر حتى أهاجر مرة أخرى .. وظلّ في جحره حتى مات قبل سنوات قليلة .. آخرون من الذين دخلوا جحورهم، قرروا الرحيل، وبسرعة؛ خوفاً على العِرض والأولاد الذين يعملون في دولٍ مجاورة، ولكن كيف السبيل إلى الخروج؟ هناك منع تجوّل، ولا توجد سيارات لنقل هؤلاء المشردين وهم كُثر، البعض منهم كان محظوظاً فركب عرباية يجرها بغلٌ، والآخر

كان متميزاً فركب سيارة نقل هو وعائلات كثيرة، عبرت بهم نهر الشريعة، إلى المجهول..

صبيان كثيرون هاموا على وجوههم من شدة الخوف والرعب والهلع، عندما عادوا إلى بيوتهم ولم يجدوا أباً ولا أماً، ساحوا في الوديان، وركبوا الجبال وأصبحوا كقطعان ماشية لا راعي لها، صبيان في الثامنة والعاشرة وفتيات في نفس العمر،، الكل يهيم على وجهه لا يدري إلى أين يتجه .. وكانت فاطمة ذات الإثني عشر ربيعاً،، كانت واحدة من هؤلاء الهائمين على وجوههم .. عبرت القرى المحيطة برام الله، ومن خلال طريق وعر يمتدّ بين سلسلة جبال وينحدر نحو أريحا، راحت تسير،، انتهى النهار ولم ينته الطريق، مالت إلى حفرة في شق الجبل، واتكأت على صخرة ودون أن تلتفت حولها،، فهذا لم يعد مهماً، راحت في سبات عميق .. مرّت شاحنة صغيرة أو شاحنتان أثناء نومها، فظنت أنها تحلم ولكنها كانت تستأنسُ بهذا الحدث، فهناك بشر يمرون من هنا.

وبزغ الفجر، فنهضت وواصلت مسيرتها لا تدري إلى أين، ولكنها تعلم أن الشمس تشرق من الشرق، وأن خالق الكون موجود في كلّ مكان، ومرت سيارة صغيرة تحمل أضعاف حمولتها، فقال أحدهم: مسكينة، لعلها قضت ليلتها تمشي، ولكن...؟؟

وحفّتها الملائكة حتى وصلت إلى أريحا .. كنا في الصيف .. وكانت درجة الحرارة تصل إلى حد ّ الغليان .. وكانت بضع طائرات ميراج تجوب الجوّ الفسيح كالصقور .. وكان الفضاء رحباً واسعاً ولا شيء يعكر صفو الطائرات.. لقد كانت طائراتنا تنعم بنهار دافئ في مخابئها، وكان الطيارون وصقور الجو في حالة استرخاء، وكان بعضهم قد قضى ليلة رائعة في حفلة أم كلثوم تلك الليلة، حتى مطلع الفجر .. وعندما أبلغوا في وقت متأخر أن عليهم القيام بواجب وطني .. قاموا متكاسلين، وعندما وصلوا إلى المطارات،، كانت فاجعة .. كل الطرق لا تؤدي إلى روما، وصقورهم الرابضة أتلفتها طائرات الميراج .. فعادوا إلى بيوتهم..

يا بنـــت ! إلى أين أنتِ ذاهبة وحدك؟ سألها رجل شهم ..

لا أدري ! لم أجد أهلي في البيت في رام الله، فقد يكونون ممن اتجهوا شرقاً مع الكثيرين الذي تراهم الآن ..

يا ابنتي، اركبي معنا، هذه زوجتي وهذا ابني وهذه ابنتي .. اركبي، وترقرقت في عينيّ الرجل دموع كثيرة، وقال: آهــــ

نزل أبو حسن في أحد المخيمات، التي أصبحت تتكون شـرقاً بسرعة الريح، وتضخمت المخيمات لتصبح مدناً، كـل زاويـة مـن المخيم هي مدينـة، فنزل أبو حسن في إحدة هذه المدن البديلة، حتـى يأتي الله بالفرج،، كانت في أول الأمر خيمة واحدة، تنـام فيهـا كـل الأسرة، ونامت فاطمة في حضن ابنة الرجل، هي لم تنـم: أين أنا مع هذه العائلة! أين أمي! أين أبـي وإخـوتي؟؟؟ وانطلـق صـوت أذان الفجر ضعيفاً يتخلله نشيج رجل عجوز .. وجارٌ وقف أمام الخيمـة المجاورة: الله لا يحيلها عنهم .. وصوت زوجته يردد: وحّـــد الله يـا زلمـــــة ..

وظلّـت السنون تحبو .. ويمتدّ بنا الأجل، وأصبحت فاطمة في سنِّ ِ الثامنة عشرة، أصبحت جزءاً من بيـت أبـي حـسن، وأصبح حسن في سنّ العـشرين، فطلبهـا مـن أبيـه، وسـألها الأب إن كانـت ترغب في ابنه زوجاً .. وكانت الحفلة في الخيمـة، ولكـن العروسـين نزلا في خيمة أخرى مجاورة، أجرتها ديناران في مطلع كل شهر.

كان أبو وسيم في الكويت، وكان يعمل في شركة، وسمع مـن حسن تلك القصة التي تكررت كثيرا أثناء زحفنا إلى المخيمات، وكان علـى وشـك الـسفر في إجـازة إلى رام الله، فـاقترح علـى حـسن أن يبحث له عن أنسبائه أهل فاطمة هنـاك، وأخـذ العنـوان، وأول مـا

فعله عند وصوله أن راح يبحث ويسأل،، وكان جواب صاحب الدكّان: هم فوق دكاني .. الآن صعد الرجل إلى بيته .. وفي لهفة من وجد ضالته، صعد ركضا ودقّ الباب .. من؟ ضيف من الكويت..

أهلاً بك يا أخ ..

أهلاً يا عــــم ..

وقالت الأم: قلبي يحدثني بأمر يا ضيف !

نعــم، جئت لأمر.

وقال الرجل: إذهبي وهاتي الشاي .. ما الأمر يا بــني ؟

فاطمــة يا حــاج .. فاطمة في الكويت..

هــــــا ؟ وفغر الرجل فاهُ .. لا تقل شيئا أمام أمها الآن ..

وعادت الأم بالشاي وهي تحدّق في وجه أبي وسيم، وهو يحاول أن يبعد نظراته عنها، ولكنها أعادت القول:

قلبي دليلي يا ضيف .. بنــتي ؟

ولكم أن تتخيلوا كيف كان الحال بعد شهر، كانت فاطمة تقف على باب أبويها، وفتحت الأم الباب، وتشابكت الأيدي

واختلط الندى بالندى بينما شهق الأب متراخياً على أريكة كانت خلفه، وراح يكرر: آهـــــ آهـــــــ آهـــــــ - لم تنته الحكايات بعد............

الرجل الأخضر

وبعد سنوات طوال، اكتشفنا أنه أخطر مما كنا نرى، كان خطراً على أناس يزيد عددهم على نصف مليون إنسان، أناس بسطاء طحنهم الجهل والفقر وحسرة الفراق.

رجلٌ اسمر البشرة، قصير القامة نحيف البنية، يلبس قميصا أخضر وبنطالاً أخضر، يحمل على ظهره دولاباً لسنّ السكاكين والمقصات، يدور في كل الشوارع وهو ينادي: مجلّخ، مجلخ سكاكين، مقصات، مناشير، مجلخ .. لا يكلم أحداً ولا يؤذي أحداً، فإذا ناولته السكين ليحده، تناوله في سكون ووضع دولابه ذا القوائم الأربعة على الأرض، ثم رفسه برجله فيدور، ويبدأ في سنّ السكين، ويتطاير الشرر إلى الأمام على امتداد نصف متر، يناولك سكينك ويأخذ منك قرشاً وينصرف.

هذا الأسبوع يدور في مخيم عقبة جبر، وفي الأسبوع التالي يدور في مخيم عين السلطان وفي الأسبوع الثالث يدور في مخيم نويعمة، وكلها تقع حول أريحا، يدور ويدور ونحن نراه ولا يخطر

بينالنا أيّ شكٍ حول هذا الرجل الغريب، كل ما كنا نقوله: شكله يمني .. مسكين.

كانت هذه المخيمات الثلاثة تغلي بالمشاعر الوطنية آنذاك، وكان الشباب بلا عمل، أين العمل في أريحا؟ بعض المزارع حولها تستوعب مئة عامل، ومئات الآلاف منهم عاطلون، البعض يتسكع في الشوارع الترابية بين البيوت الطينية، وبعضهم يجلس على المقاهي التي ازدهرت آنئذ، يشربون الشاي أو القهوة، ويلعبون الورق.. رجال محترمون في الماضي القريب، أصبحت أسماؤهم ؛ أبو تريس، وأبو قبة وأبو الديناري .. لقد أصبحوا مفلسين من كل قيمة، فقد جُردوا من عباءة الوطن. وفي المقاهي يدوي صوت أحمد سعيد: صوت العرب من القاهرة، وتنتصب الآذان لتسمع آخر الأنباء .. وتتحلق الآمال العظام فوق رؤوسهم، يبتسمون ويهزون رؤوسهم يدغدغهم أمل لا حدود له، والرجل الأخضر يمرّ من بين المقاهي مرور البعوضة تحت جنح الليل، لا يكاد يراه أحد ولا يشعر به أحد.

أصبحنا نسمع عن شباب انضموا إلى جبهات ذات أسماء غريبة على أسماعنا، ج ت ف، وفتح، والبعث، والقوميين العرب، والإخوان المسلمين .. وغير ذلك، ثم سمعنا أسماء تتردد بفخر

واعتزاز،، فلان فـدائي،، ولما كنا صغاراً في ذلك الزمن الأغبر، فقـد أصبحنا نبحث عن سـكن هـذا الفـدائي لنـراه، وهـو يلـبس لبـاس الكاكي ويضع على جنبه رشاشاً صغيراً فنـسأله: مـا هـذا؟ فيقـول: سيمنوف .. وعلمنا أنّ هؤلاء الشباب كـانوا يـذهبون لـيلاً في اتجـاه البحر الميـت بمنطقـة الفـشخة ومـا حولهـا، يهـاجمون الاسـرائيليين، يقومون بعمليات صغيرة ثم يعـودون، ولكـنهم كـانوا بـين شـــقيّ الرحـــى .. وعندما كانوا يعودون من عملياتهم الصغيرة كنا نـسمع الأحاديث التي تثير زهونا وفرحنا، لقد اشتبكوا مـع اليهـود وقتلـوا منهم. .. وعادوا إلى قواعدهم سالمين .. تفتخر النساء بهـذه الأنبـاء ويحدثن بها الصغار والكبار، وندور في الشوارع الترابية ونحن نهتـف بصوت عـال، ونتحدث عن تلك البطولات التي يصنعها الفدائيون، وترفرف الآمال العريضة على جنـاحي العـودة في افتتـــان .. بينمـا يدور الرجل الأخضر في شوارعنا يسمع كـل هـذه الأحاديـث، بمـا فيها من تهويل وتضخيم، ويحمـل في ذاكرتـه كـل آمالنـا وأمنياتنـا، وعلى الرغم من عدم وجود الانترنت يومهـا، إلا أنّ تلـك الحـالات كانت تنتقل إلى الطرف الآخر من الحدود بشكل ما.. ..

في اليوم الثاني من حرب يونيو، وعندما كانت الدبابات الإسرائيلية تعبر الطريق قادمة من القدس إلى أريحا .. كان الرجل الأخضر يقف على طرف الشارع وهو يحمل دولابه، وقد وضع على رأسه طاقية خضراء، توقفت الدبابات ونزل منها جنود وضباط كبار، راحوا يؤدون التحية العسكرية للرجل الأخضر .. الذي ركل الدولاب بعيداً، وصعد إلى الدبابة.

لقد انتهت المهمة.

أوراق .. ولمّ الشمل

كنا متوجهين من عمان إلى الغور، ابتغاء الجسر الفاصل بين الحقيقة والخيال، وتحدث الركاب حول الحال، كل راكب يجب أن يحمل صورته معه ليقدمها للخواجات مع الجواز .. فنزلت وعائلتي في الشونة الجنوبية، وفوراً توجهنا إلى المصوّر- يسمونه في السعودية، العكّاس – وعملنا صوراً فورية ودفعت الثمن مضاعفاً بسبب السرعة في الإنجاز، فإلى القاعة الصيفية المفتوحة على الجانب العربي، حيث أسراب الذباب تذكرك بيأجوج و مأجوج.

نقلنا باص عتيق من جانب إلى جانب .. كان يهتزّ بفعل الأزمة، الشنط والسلال والأكياس وحمولة الهموم التي يحملها كل راكب واللعنات تنصب في كلّ اتجاه وكأن يوم القيامة أوشك والناس على أبواب النشور .. ونزلنا في الجانب الآخر، تغيّر الحال .. الكل مهذب وصامت وعلى الدور، ودخلنا القاعة الفسيحة، كانت نظيفة ومكيفة وفيها كراسي لكل الحضور، وشبابيك يقف خلفها أناس خواجات، يبتسمون ولكن في صرامة .. بدأ الهمس بين

الجالسين: كل من معه صورة يقطعها وإلا دخل الغرفة 13، وما أدراك ما هي ..

قمت من فوري واتجهت ناحية سلة الزبالة وقطعت الصور وألقيتها فيها وعدتُ سالماً .. ولما وصلت إلى الشباك وقدّمت أوراقي، نظر إليّ الخواجا وقال: أين الصور؟ قلتُ: قطعتها قبل دقائق فالناس يهمسون بكذا وكذا .. قال: لا بأس، أعط جوازك وجواز زوجتك إلى سائق تاكسي خارج القاعة وسيصورها لك في الشونة خلال ساعة، ثم تأتي .. قلت: جاء الفرج.

أيها السائق، خذ هذين الجوازين وصور الصورتين وعد بسرعة الله يخليك فمعي عائلة وأطفال .. قال: هات ستة دنانير .. وأعطيته. عدتُ إلى القاعة أنتظر .. صارت الساعة الثانية إلا ربعاً .. لم يبق على الإغلاق سوى ربع ساعة .. وأنا أتقلّى على جمر في انتظار السائق اللعين .. وإذا صوت سائق آخر يناديني، أسرعت فقال: بسرعة هات ستة دنانير وخذ الجوازين .. قلت: دفعت لصاحبك قبل قليل .. قال: (وهو ريحاوي) هات وإلا رجعت بالجوازين .. ولضيق الوقت ناولته ولعنت كلّ شيء .. وجريت نحو الشباك، ناولت الخواجا الجوازين .. فتحهما وضحك كثيرا .. أراني الصور.. صوّرهما الريحاوي على ناسخة بشلن .. وكلفني ذلك اثني

عشر ديناراً .. قلت للخواجا: الله يلعن....... .. ويلعن...... ..
هل تقبلها أم أعود إلى عمان ؟ قال: أقبلها .. ودخلت..

تذكرت هذه المصيبة عندما نظرت إلى أوراقي المبعثرة ما بين عمان والدوحة .. في كل زاوية أوراق .. في المكتبة أوراق، وفي غرفة النوم أوراق، وفي مدخل الحمام أوراق، وفي الممرات أوراق، وفي المكتب أوراق حتى أنّ السكرتيرة لم تعد تعرف كيف تجمعها .. وأخيراً وبعد عناء طويل الأجل، حصلنا على أربع مجموعات .. سمينا الأولى – الوجبة الغنية في معرفة العربية، وسمينا الثانية – همسات ذهبية في تعلم العربية، وسمينا الثالثة – المهارات اللغوية في تعلم العربية، وسمينا الرابعة – إقرأ وتكلم العربية.

ورزقنا الله بابن حلال، ناشر مبتدئ، أخذ هذه الأوراق وصممها وهو الآن يصنع منها كتباً أربعة، ستكون جاهزة للاستعمال خلال أسابيع قليلة ..

بعد أن ينتهي من طرحها في السوق – وسوق اللغة قصير النظر- سأكون طماعاً واسلمه مجموعتين أخريين؛ ديوان شعر، وقصصاً قصيرة .. ومن قلبي أدعو له بالنجاح وتغطية النفقات ويشيء من الربح.

ولكن .. هل سنبقى مشتتين نحمل أوراقنا في اتجاه الريح العاتية؟ وهل سنظل نحمل أوزارنا ما بين غزة والقطاع.. وهل ستبقى يافا حائرة بين الغربة والاغتراب؟؟؟؟

قولوا لعين الشمس

ارتفعت درجة الحرارة في يوليو، بلغت حداً جعلنا نتطلع إلى السماء نطلب الغوث، كانت عيوننا تبحلق في فضاء الكون، وقلوبنا الواجفة تكاد تقفز من بين أضلعنا فرحاً، وكأن طبول العرس الكبير قد بدأت تدقّ في أرجاء الوطن، الشباب في كل أرجاء الوطن إما أنهم تطوّعوا أو جلسوا على المقاهي يبحلقون في جهاز راديو من النوع القديم، الذي يخفي خلفه بطارية بحجم الجهاز نفسه، ويأتي الصوت مجلجلاً: أيها العرب، لقد دقّت ساعة الخلاص .. ويصفق المستمعون بحرارة نادرة، تلمع عيونهم بهجةً وتفيض الوجوه بالبشرى .. وصورة الزعيم لا تفارق خيال الفرحة، بل إنها تسكن كل زاوية في القلوب وعلى جدران الطين في مخيمات اللاجئين، وعلى أعمدة الخيام في أماكن أخرى.

في مدينة عدن وفي مدينة المكلا، كانت صور الزعيم تتقدم كل حفل، تتقدم الأعراس حيث يحملون الصورة مكبرة، أكبر من الحجم الطبيعي ويسيرون بها بجانب العريس، وتكون الزفة للزعيم قبل زفة العريس، وعلى جدران البيوت وفي الفنادق، وكانت ثورة اليمنيين في الجنوب على أشدها، الجنود البريطانيون يسيرون في

مجموعات صغيرة أيديهم على الزناد، خائفون كالقطط المذعورة، وينطلق صوت من المجهول: لا تحرج الثائر .. وتنزل القنابل على الشارع من حول الجنود، الذين يسارعون إلى إطلاق النار عشوائياً.. ثم يدخلون الفنادق ينزعون صور الزعيم عن الجدران في نزق وعصبية ..

قرر الثوار أن يستفيدوا من هذه الظاهرة .. وضعوا أصابع من الديناميت خلف كل صورة، وعندما ينزع الجنود الصورة بعنف، تتفجر أصابع الديناميت، فيهرعون لا يلوون على شيء..وغادروا عدن وحضرموت كما تغادر الجرذان جحورها إثر حريق كبير، لكنهم أشعلوا الفتنة بين إخوة السلاح .. كعادتهم.

دقت ساعة العمل .. صباح الاثنين .. ووقفنا على أرجلنا نرقب الخبر اليقين، كانت الفرحة لا تحتمل، فتحت الراديو ووضعت أمامي خارطة فلسطين والوطن العربي، أسمع الكلمة وأتتبعها على الخارطة، زحفت جحافلنا إلى هذا المكان، استعادوا قرية وقرية، احتلوا هضبة وارتقوا جبلاً ، وكانت طائرات سود تجوس السماء وأزيزها يقطع القلوب، وقال جاري أبو سميح: هذه طائرات ميراج معادية، لكن الأخبار مطمئنة، يا رب تستر.

عند الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، سمعتُ حركة وأصواتاً خلف شباكي، فتحت الشباك وألقيت نظرة، وإذا مجموعة من الجنود يزيد عددهم على الأربعين، تحت أشجار الزيتون في غير نظام، خرجت إليهم وسألت: أين الضابط؟ قالوا: هذا هو .. توجهت إليه، وقلت: يا سيدي كيف أستطيع أن أساعدكم؟ أجاب وقد احمرّ وجهه: لا وقت لدينا فنحن مغادرون .. قلت: إلى أين ؟ قال: إلى الضفة الأخرى. سقط قلبي في ركبتيّ وكاد يغشى عليّ، فخرجت إلى الطريق أنادي: أيها الناس، هاتوا ماءً وشاياً وطعاماً بسرعة .. ووضعناه أمام الجنود الذين غادرونا بعد أقل من عشرين دقيقة .. وما أن خرجوا من شارعنا حتى كانت دبابات تحمل شباباً سمر الوجوه، فهتفتُ لهم، وعاد جاري أبو سميح يصيح: يا أستاذ ادخل بيتك هؤلاء يهود، وصاح بي جندي: ادخل.. ..

دخلت وأنا غير مصدق لما أرى، بهذه السرعة .. !! ألم يلتق جنودنا بجنود العدو عند مفرق الطريق القريب؟ لم نسمع إطلاق نار!! وقال السكان المجاورون للمفرق: نعم التقوا، جنودنا اتجهوا إلى اليسار في اتجاه أريحا، وجنود العدو ظلوا سائرين إلى الأمام .. كانوا قادمين من رام الله إلى بير زيت، ومنها اتجهوا إلى قرى بني زيـــد،،، كان بعض الفدائيين الذين تسللوا من غزة يومها، يطلقون النار هنا

وهناك، من بين أشجار التين، وقد وجدنا جثة أحدهم وفي فمه حبة تين عجر كان يأكلها. .. ماذا تفعل الدموع في هذا الموقف؟

عدت إلى الراديو .. محطة القدس .. كان المذيع يتحدث في حماسة بالغة: حققنا نصراً على كل الجبهات .. وفي ظل هذا الحماس الزائد، دخل عليه جنود العدو وسلموه ورقة لنشرة الأخبار، وإذا به يزورّ ويقول: تقدمت القوات الإسرائيلية على جميع الجبهات .. ووو ، ولما انتهى من قراءة النشرة، وضعوا أغنية شادية:

قولوا لعين الشمس ما تحماش – لحسن حبيب القلب صابح ماشي. ..

منذ تلك اللحظة، كرهت هذه الأغنية، لأنها تذكرني بيوم النكبة الكبرى في حرب 67 ..

فقلبي وقلوبكم مكسورة ومكلومة منذ ذلك اليوم، وحتى اليوم.. وأعتذر لأنني نبشت همومكم.



- وكما تنتقل الطيور المهاجرة، ولد صاحبنا في العباسية/يافا، قبل الهجرة الأولى، ثم جال كثيرا في ربوع عقبة جبر/ أريحا، حتى أنهى الثانوية فيها، درس اللغة الانجليزية في دار المعلمين - رام الله، وعمل مدرسا في الأغوار الشمالية، انتقل بعدها إلى الأمعري - رام الله، ثم استقال وهاجر هجرته الثانية نحو حضرموت، وبعدها حدثت حرب 67 فهاجر هجرته الثالثة، وانتقل إلى السعودية. عمل في التدريس والترجمة والإدارة..
- درس اللغة العربية في بيروت، ثم درس الإدارة في مانشستر، وأخذ دورات كثيرة في الأردن وقبرص ولاتفيا وأمريكا وفي قطر.
- كتب الشعر يافعا ثم كتب القصة القصيرة بعد ذلك.
- أرجو أن تتقبلوا منه هذه المجموعة القصصية، فقد كتبها لكم: من القلب إلى القلب.





دار غيداء للنشر والتوزيع

تلاع العلي - شارع الملكة رانيا العبدالله - مجمع العساف التجاري - الطابق الأول

تلفاكس : 5353402 6 962+ - خلوي : 95667143 7 962+

ص.ب : 520946 عمان 11152 الأردن - E-mail: darghidaa@gmail.com